

الأدب في عصر بني أمية

ازدهر الأدب العربي في عهد الأمويين وتفتحت أزهاره ، وأينعت ثماره ،
وتضوع عبيره ، وأشرق ضياؤه ، بما حفل من رائع القول ، وبديع الفكر ،
وجيد المعاني ، وعبقري الخيال .

ولا تزال صفحة العربية لامعة لامعة بذلك التراث الخالد ، الذي سجل صور
الحياة ، ومظاهر التاريخ ، وأحداث العصر ، وما تعاور على الأمة من خير
وشر ، وحلو ومر ، وشدة ورخاء ، وهدوء وسلام ، وجلاد وخصام .
وإن الذي يجتلي أسرارها ، ويستعرض آثارها ، ويكتنه ظواهرها وأغوارها ،
ليرى العربية في شبابها وقوتها ، وعنفوانها وفورتها ، واستجابتها للطبيعة لما
استجد للعرب من حياة ، وما تهيأ لهم من ملك واسع وجاه عريض .

كيف قام ملك بني أمية ؟

على أنه لابد لدارس الأدب وما اعتراه من تطورات في عهد الأمويين ، أن
يمر بالأسباب التي كونت هذا العهد ، والعوامل التي أنشأت هذا الملك حتى
تتضح له الميزات ، وتستبين لديه الخصائص والسمات .

فقد قام هذا العصر على أنقاض كفاح مرير بين علي ومعاوية ، أزهرت فيه
أرواح ، وسفكت دماء ، واستبيحت حرمانات ، وهتكت أمتار .

ثم هو عصر كله كفاح وجلاد ، وحرب وخصام ، ومعارك حامية ، شهرت
فيها السيوف ، وشرعت الرماح ، وتقارعت الألسنة . فان قتل الخليفة الثالث
عثمان بن عفان رضي الله عنه كان كسر آليات الفتنة ، وفتحاً لمغاليق الشر ،

على هذه الدولة الإسلامية الناشئة ، إذ تكاثرت عليها الأحداث والخطوب ، وعصفت بوحدها وقوتها نوائب الدهر ، وأحداث الزمان .

وكان أول الشر أن ظل على ومعاوية يتصارعان على الخلافة ، ويحشد كل منهما لآخيه ما يملك من عدة وقوة . وما يدخر من حيلة ووسيلة .

وقد كان اعتماد عليّ على ما يؤمن به من حقه وأوليّته ، لقربته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحسن بلائه في الإسلام ، وصديق جهاده في سبيل الله ، وتأييد أئمة المسلمين له ، وأكثر أهل الحل والعقد في هذه الأمة .

أما معاوية فكان يدفعه إلى ذلك ما وقر في نفسه ، وهجم في أعماقه من رغبة في السيادة قديمة ، وحب في الرياسة أصيل . ومن هنا راح يعمل لذلك ، وأخذ يمدد للولاية على المسلمين ، متخذاً المطالبة بدم عثمان سترًا وتقية .

ولقد توفر لديه من الوسائل ، واجتمع له من الأسباب ، ما يمكنه من

المضى إلى وجهته ، والإسراع إلى غايته . فقد كان والياً على الشام ، وأقام

على ذلك قرابة العشرين عاماً ، ظل فيها يؤلف القلوب ، ويحتذب إليه

النفوس ، ويتخذ لدى الناس من الأيدي ما يحملهم ينهرون إلى نصرته ،

ويخفون في الأحداث والملمات إلى مساعدته . ولقد رأى الفرصة سانحة

للك فاهتملها ، والزمان مواتياً فلم يضيّعها ؛ ذلك أن علياً حين آلت أمور

المسلمين إليه وجد أن ألب النفوس ، وأضغن القلوب على عثمان ،

وأشعل الثورة ضده في كل مكان ، هم أقرباؤه الذين آثرهم بالسلطان وجعل

منهم أمناء وجبائته وولائه على الأمصار ، فرأى عليّ لمكي يستتب الأمر ،

وتطمئن النفوس ، وتسكن الثورة الجائحة ، أنه لابد من عزل ولاية عثمان ،

وهنا تسنح الفرصة لمعاوية وينفتح له الباب الذي ينفذ منه إلى أغراضه

وأطماعه . فانه حين جاءه كتاب عليّ بالعزل ، تمرد عليه ، ولم يخضع له ،

وقال : لا خلافة إلا بعد قتل قتلة عثمان ، ووجد من أهل الشام المعين

والنصير ، فنهض للثورة على عليّ ، ومحاربه ، وقوى من ساعده ، وشد في

عضده ، أن طلحة والزبير ثارا كذلك على ، على ، واستنفرا عائشة أم المؤمنين لقتاله ، فخاربه حتى هزم جيشها في موقعة الجمل .

وظلت أمور المسلمين هكذا تنتاشها الفتن ، وتنازل منها الثورات ، وتلعب بها المواطنين ، حتى انتهت هذه الحال بقتل علي ، وتنازل ابنه الحسن عن حقه في الخلافة بعد قتله بستة أشهر ، حققنا لدهاء المسلمين . وهكذا تم لمعاوية الأمر وانفرد بالولاية على شئون المسلمين سنة ٤١ هـ ، وبذلك قامت دولة بني أمية ، في هذا العام ، الذي يعرف بعام الجماعة .

الأحزاب السياسية :

على أن معاوية لم ينهض بأمر الملك إلا والمجتمع الإسلامي تسوده ثلاث جماعات متباعدة المنزع ، متباعدة الرأي ، متخالفة الفكرة ، وهي :

١ - جماعة الأمويين ، الذين ناصروا معاوية ، وشايعوه في فكرته ، وآزروه في مهمته ، وحاولوا جاهدين أن يتم له الأمر ، وتجتمع لديه أسباب الملك . وكان يدفع هؤلاء إلى العمل الدائب ماورثوا من أطباع قديمة ، ومارب سرت في النفس والدم ، واختلطت باللحم والعظم ، وأصبحت في حيويتهم حلم النوم ، ومطرح الخيال في اليقظة .

كان هذا الفريق منبثا في بلاد الشام وغيرها من سائر الأمصار الإسلامية ، وخاصة مصر .

٢ - شيعة علي بن أبي طالب ، وهم الذين أحبوه وناصروه ، وآمنوا به وعزروه ، وقاموا يناضلون عن حقه ، ويكافون معسه في سبيل استقرار خلافته ، وكانوا يؤمنون لإيماننا قويا أنه أحق بولاية أمر المسلمين من معاوية وأكثر هؤلاء كان في بلاد العراق وقليل منهم كان في مصر .

سكترا عن الخلافة حينما قصيرا عقب تنازل الحسن ، وفي النفوس غضب وتحفز ، وفيها ترائب وانتظار ، ثم بدأ معاوية بنقض ميثاقه ، وبخلف عهده ، وأخذ

يعتقد البيعة لولده يزيد ، وكان العهد أن تكون للحسين بعد معارضة ، فمادت الثورة من جديد جندة ، رجعت تتهاقم وتشتد ، وبدأ الغيظ المسكتوم ، والغضب المسكتوم ، يبحث على الثورة ، ويدعو الى التمرد ، وكان ماشهده الخارج من دماء زكية تجمدت على صمخته ، ومأس بشعة لا تزال تدفع لها العيون ، وترتعد الفرائص ، ونجزع النفوس .

٣ — الخوارج : وهؤلاء الذين خرجوا على علي ، وكفروه حين قبل التحكيم ، وكانوا يرون أن الخلافة حق لكل مسلم ، مادامت فيه كفاية للحكم ، وأهلية للخلافة .. لافرق بين قرشي وغيره . وكان فيهم عصبية طاغية لما يعتقدون من رأى ، ويدعون به من مذهب ، إلى عداوة حامية ، وبغضاء شديدة للفرقةين ، فهم يستحلون دماءهم وأموالهم ، ويرونهم إذ خالفوهم في رأى خارجين على الدين ، مارقين من الملة . فلم يهدأوا لحظة ، ولم يدعوا للحكام يستريحون برهة ، فقد كانوا في كل مكان شوكة في جنبهم ، وشجى في حلوقهم ، لا يقاربهم هدوء الطبيع ، ولا سكون النفس ، ولا يمر بهم طائف من التسامح . ول هؤلاء أدب يصور آراهم ، ويعبر عن عقائدهم ، ويحكي ما تنطوى عليه نفوسهم من مذاهب ، ويعهد من أروع وأخلد ما خلفه العرب من تراث ، وما تركوا من آثار .

٤ — وقد انشأ الى جانب هذه الأحزاب المنعادية المتشاكسة فيما بعد ، حزب آخر ، هو حزب الزبير ، وكان معاوية يسرف خطره على خلافته فأوصى ابنه أن يحترس منه ، وأن يتخذ من الأسباب ما يبعده عن شره . ومن قوله في ذلك له : « لست أخاف عليك إلا ثلاثة ، الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر » أما الحسين فأرجو أن يكفئك الله ، وأما ابن الزبير فإنه خب صب ، فإن ظفرت به فقتله إربا إربا (١)

وأما ابن عمر فإنه رجل قد وقده الروح ^(١) ، نخل بينه وبين آخرته بخل بينك وبين دنياك .

يجمع تسوده هذه الطوائف ، التي لا تعرف الضعف ولا القواخي . هذه الطوائف التي لا يمن عودها ، ولا يسلح قيادها ، ولا تهدأ ثورتها ، ولا يسكن جموحها . هذه الطوائف التي تراشق في السر والعلن ، وتتصاول باللسان وتتهاذف باللسان . يجمع قصطرع في ساحته هذه القوى الهادرة الثائرة : تموزه حكمة في قيادته وحكمة في ولايته ، ومراس قوى ، وعقلية ناضجة في تدبير أمره . وكذلك كان معاوية : آناه الله حلالا على خصومه مهما خاشنوه القول ، وجفوا في الخطاب ، ومنحه دهاء وبراعة حيلة ، وتأنيسا إلى الأمور من أيسر سبيل . يصفه صاحب الفخرى بقوله : كان معاوية عاقلا في دنياه ، لبيباً عالماً حلماً ملكاً قويا جبد السياسة ، حسن التدبير لأمر الدنيا ، عاقلا حكيما فصيحاً بليغا ، يحلم في موضع الحلم ، ويشدد في موضع الشدة إلا أن الحلم كان أغلب عليه . وكان كريما باذلا للمال ، محبا للرياسة ، مشغوظا بها . كان يفضل على أشرف رعيته كثيرا . فلا يزال أشرف قریش مثل عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن جعفر ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، وأبان بن عثمان بن عفان ، وناس من آل أبي طالب رضي الله عنهم يفسدون عليه بدمشق فيسكرم مشواهم ، ويكمن قراهم ويقتنى حوائجهم ، ولا يزالون يمدونه أغلاظ الحديث ، ويحبونه أقبح الجبه ، وهم يداعبهم نارة ، ويتناقل عنهم أخرى ، ولا يعيدهم إلا بالجوائز الصنية ، والصلوات الجملة . قال يوما لقيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنه وهو رجل من الأنصار : يا قيس ، والله ما كنت أود أن تنكشف الحروب التي كانت بيني وبين علي عليه السلام وأنت حي ، فقال قيس : والله إنى كنت أكره أن تنكشف تلك الحروب ، وأنت أمير المؤمنين فلم يقل له شيئا . وهذا من أجل ما كانوا يخاطبونه به .

سياسة الامويين

وأثرها في الأدب

- ١ -

تولى معاوية بن أبي سفيان أمور المسلمين ، والأمة طوائف متعددة ، و
فرق متباينة ، وجماعات متنافرة متشاكسة . ولكنه لم يترك سبيلا لتوطيد
عرشه ، وتأيد ملكه إلا سلكها . فأحيانا تكون وسيلته إلى ذلك المال .
فمور يستحوذ في بدله ، ويخف لمنحه ، حين يكون المنح والإعطاء مدعاة إلى
تأليف القلوب ، وتسكين الاحتقاد . وقد جعل عطاء الحسن والحسين ألف
ألف درهم ، بعد أن كان خمسة آلاف أيام عمر بن الخطاب ، كما أغدق
هو وخلفاؤه على أبناء الأنصار والمهاجرين ، ليشغلهم بالدنيا ومتاعها ، والحياة
وطورها ومفاتها ، عن المطالبة بالخلافة ، حتى صار الحجاز مباءة الترف ،
وانتشر فيه الغناء ، وشغل الكثير من ضئف وقارهم ، وخفت موازين
الدين في أنفسهم ، بما دفع إليه الترف من إقبال على اللذات ، وإيثار
للشهوات . . . يقول السعدي في مروج الذهب : « كان معاوية يجلس
في مجلسه ويقول : ارفعوا إلينا حوائج من لا يصل إلينا ، فيقوم الرجل
فيقول : استشهد فلان فيقول : افرضوا لولده ، ويقول آخر : غاب فلان
عن أهله ، فيقول : تعاهدوهم ، أعطوهم ، اقضوا حوائجهم ، اخذموهم . »

وعهد معاوية إلى الشغراء فقرهم ، وأثار شاعريتهم ، ودفعهم إلى
الإحسان والتجويد دفعا ، بما أفسح لهم في قلبه ، ومنحهم من سمعه ،
وخلع عليهم من عطايا ، وأغدق من هبات ومنح ، حتى جعل لهم نصيبا
في بيت المال . وكذلك اتبع خلفاؤه من بني أمية سنته ، وآثروا طريقته ،

ليشـتروا ألسنتهم ، ويرضوا رغائبهم ، بما تفيض به قرائحهم من جيد المدح ، ورائع القول ، ومتخير القصائد .

فهذا عامل أثار عواطف الشعراء ، وجعل للأدب سوقا رائجة ، وبضاعة نافقة ، وجعل الحياة تزخر بهذا التراث العبقري الخالد ، الذي فطالعه فلا ينتهي إعجابنا ، ولا يتضائل تقديرنا وإكبارنا .

ولقد ظل الشعراء يأخذون عطاياهم من بيت المال ، حتى أبطل ذلك الخليفة الصالح الورع عمر بن عبد العزيز في عهده . ثم لم تلبث هذه الحال أن عادت بعد موته إلى ما كانت عليه . وما يؤثر عنه أن الشعراء وقفوا ببابه بعد توليه الخلافة ، حتى طال بهم الوقوف ، فكلمه عدى ابن أرطاة ، وكان أثيراً عنده ، فقال له : إن الشعراء ببابك ، وأفوالهم باقية ، وألسنتهم مسنونة ؛ فقال يا عدى : مالي وللشعراء ؟ قال يا أمير المؤمنين : إن النبي صلى الله عليه وسلم قد مدح وأعطى ، وفيه أسوة لكل مسلم ؛ فساله عن الباب من الشعراء ، فجعل عدى كلما ذكر له شاعراً عد عليه من قوله ما يفسقه به أو يكفره ، ولم يأذن إلا لجريز ، فلما مثل بين يديه قال له : اتق الله يا جريز ، ولا تقل إلا حقاً . فأنشأ يقول :

كم بالجمامة من شمام أرملة	ومن يتيم ضعيف الصوت والبصر
من يعدك تكفى فقد والده	كالفرخ في العش لم ينمض ولم يطر
يدعوك دعوة ملهم كأن به	خبلا من الجن أو مسا من البشر
خليفة الله ماذا تأمرن بنا	لسنا إليكم ولا في دار منتظر (١)
مازالت بعدك في هم يورقني	قد طال في الحى إصعادي ومنحدري
ما ينفع الحاضر المجهود بادي	ولا يعود لنا باد على حضر (٢)
إننا نرجو إذا ما الغيث أخلفنا	من الخليفة ما نرجو من المطر

أتى الخليفة إذ كانت له قدرا كما أتى ربه موسى على قدر
 هذه الأراميل قد قضيت حاجتها فمن الحاجة هذا الأزم الله كره ؟
 فقال يا جرير : والله لقد وليت هذا الأمر ، وما أملك إلا ثلاثمائة ،
 فمائة أخذها عبد الله ، ومائة أخذتها أم عبد الله ، يا غلام أعطه المائة
 الباقية . فقال يا أمير المؤمنين : أنها لأحب مال كسبته إلى . ثم خرج
 وهو يقول : خرجت من عند أمير المؤمنين يعطى الفقراء ويمنع الشعراء ،
 وإني عنه لراض ، ثم انشأ يقول :
 رأيت رقى الشيطان لا تستفزه وقد كان شيطان من الجن راقيا

- ٢ -

وكان من سياسة الخلفاء الأمويين إغراء الشعراء ببعضهم ، ودفهم إلى
 التهاجي ليشغل الناس بمعاتراتهم وأهاجهم عن الشغب عليهم ، وتببع
 أخطائهم . كما كانوا يفضون عن زلاتهم ، ويتغافلون عن هفواتهم ،
 ويحلمون إزاء سيئاتهم ، حتى يستلوا من نفوسهم النعمة ، وينزعوا منها الحقد
 والغضب . يروى صاحب الأغاني (١) أن عبد الرحمن بن حسان شبيب بأخت
 معاوية ، فنضب يزيد ، ودخل على معاوية ، فقال : يا أمير المؤمنين : أقتل
 عبد الرحمن بن حسان ؟ قال : ولم ؟ قال : إنه شبيب بعمق ، قال :
 وماذا قال ؟ قال : إنه يقول :

طال ليلى وبت كالحزون ومليت الثواء في جيرون
 فقال معاوية : وما علينا من طول ليله وحزنه ؟ أبعده الله . قال : إنه
 يقول :

فإذاك اغتربت بالشام حتى ظن أهلي مرجعات الظنون
 قال : يا بني وما علينا من ظن أهله ؟ قال : إنه يقول :

وهي زهراء مثل لؤلؤة الغو اص ميزات من جوهر مكنون
قال : صدق يابني ، إنها كذلك . قال : إنه يقول :

ثم خاصرتها إلى القبيصة الخفض رام تمشي في صهر مسنون
قال : لقد كذب في هذا يابني . ثم استنشدته القصيدة ، فأنشده ، فقال
يا بني ليس يجب القتل في هذا والعقوبة دون القتل ، ولكننا نكفه بالصلة
والتعازر . . وقيل أن هذا الغزل كان في بنت معاوية ، وإن عبد الرحمن
قد استمر يشبب بها ، ومن ذلك قوله :

رمل هل تذكرين يوم غزال إذ قطعنا مسيرنا بالتني
إذ تقولين : عمرك الله هل شيء وإن جل سوف يسليك عني

وكلمنا ألح يزيد على أبيه بقتله ، قال له : ليست العقوبة من أحد أقيح
منها من ذوى القدرة . . . ولما قدم عبد الرحمن على معاوية : وكان يدخل
في أخريات الناس ، أجلسه على سرير ، وأقبل عليه بوجهه وحديثه ، ثم
قال له : إن ابنتي الأخرى عاتبة عليك . قال : في أي شيء ؟ قال لأنك
مدحت أختها وتركتها ، قال : فإما العتي أنا ذاكرها . فلما فعل علم الناس
أنه كاذب في غزله ببنت معاوية ، لأنه ليست له إلا بنت واحدة .

— ٣ —

وكذلك كان من أساليب الخفاء أن يشغلوا الناس عن خلافتهم ،
وبصرفهم عن ملكهم ، بإثارة المعصيات ، وبمعك الخزازات ، وذكر
المصروفات الجاهلية ، التي أمانها الإسلام وقضى عليها ، فاستحوذ بينهم المفاخرات ،
وقويت المنافسات الحاقدة ، وانقسم المسلمون إلى أحزاب وشيع ، وطوائف
وفرق ؛ وعناصر متحفزة ثائرة ، كل عنصر يناصب أخاه العدا ، ويضمر له

البغض والكراهية ، ويخلق له من المثالب والنقائص ما يثير حفيظته ، ويهيج ضفنه . ظهرت فيهم الميمنة والمضربة ، وكانت المضربة تؤيد معاوية وتسنده ، وقد استطاع أن يستند كذلك على الميمنة ، إذ كان متزوجاً من يسون بنت جندل أم يزيد ، وهي من قبيلة كلب الميمنة .

وقد أثبت هذه المصائب دورها في التمكن لهذه الدولة ؛ وتقوية أسباب بقائها . على أنها من ناحية أخرى كانت من أسباب سقوطها ، وزوال حكمها ، فقد عمدت الميمنة بجاهدة فيما بعد لانتصار العباسيين والتمكين لقيام دولتهم . ولعل من أوضح الأمثلة على اضطراب المصائب ، وإثارة الحزازات ، ما يرويه المبرد (١) ، من أن يزيد بن معاوية لما غضب على الانصار ، حاول أن يدفع كعب بن جهميل التغلبي إلى شجائهم ، فقال له كعب : أأهجو الانصار ، أراى أنت إلى الكفر بعد الاسلام ؟ ولكن أدلك على غلام من الجي ، كأن لسانه لسان ثور . يعنى الأخطل . فأغرى يزيد الأخطل بهم ، فقال يجهوهم :

لعن الإله من اليهود عصاة بالجزع بين صليصل وصرار (٢)
— قوم إذا هدر العصير رأيتم حمرا عيونهم من المسطار (٣)
خلوا المسكارم لستم من أهلها وخذوا مساحيكم بنى النجار (٤)
ذهبت فريش بالمسكارم كلها واللوم تحت عمام الانصار

ولما جمع النعمان بن بشير الانصارى هذا الهجاء دخل على معاوية فحسر عمامته عن رأسه ، ثم قال : يا معاوية أترى لؤماً ؟ ، فقال : ما أرى إلا كرمأ ، فقال النعمان يتهدده ويتوعده :

(١) رغبة الأمل ج ٢ ص ٢٧٠ .

(٢) صليصل : موضع على مسيرة أميال من المدينة . وصرار بكسر الصاد موضع على ثلاثة أميال

(٣) المسطار : الخرة المتخذة من أبنكار الغب حديثاً .

(٤) المساحى : جمع مسحاة وهي بحرفة من حديد .

معاوى إلا تمننا الحق تعترف لحي الأزد مسدولا عليها العمام (١)
 أيسمتنا عبيد الأراقم ضالة فماذا الذى تجدى عليك الأراقم (٢)
 فما لى نأر دون قطاع لسانه فدونك من ترضيه عنك الدراهم (٣)
 فلما سمع معاوية هذه القصيدة ، بدفع الأخطل إليه ليقطع لسانه
 فاستجار يزيد فذمه ، وأرضى النعمان حتى كلف عنه ، إلى أن قال :
 وإني لأهضى عن عيوب كثيرة سترقى بهما يوما إليك السلام
 أصانع فيهما عبيد شمس وإننى انلك التى فى النفس منى أكاثم
 فما أنت والأمر الذى لست أهله ولكن ولى الحق والأمر هاشم
 إليهم يصير الأمر بعد شتاته فمن لك بالأمر الذى هو لازم؟

— ٤ —

وكان بنو أمية لشدة حرصهم على ملكهم ، ورغبتهم فى دفع الخطر ، ورد
 عدوان الطامعين ، لا يترددون فى القضاء على منافسيهم ، وتشريد من تحدته
 نفسه بالوثوب على ملكهم . . . حاربوا الخوارج ، وقصدوا لهم كل مرصد ،
 وتعقبوهم فى كل مكان ، ونكلوا بس وقع منهم فى قبضة أيديهم أشد تمكيل .
 وتبعوا العلويين فسفكوا دماءهم ، ومثلوا بهم فى عنف . وكما كان حكمهم
 وولاتهم يزادفون إليهم بالقضاء على الخوارج ، وقتلهم وتشريدهم . كانوا
 كذلك يتقربون إليهم بالعدوان العاشم على العلويين .

ولقد رثى شعراء الخوارج والعلويين قتلاهم ، وصوروا فى قصائدهم

(١) تعترف : تصبر . لحي الأزد : أى شيخ الأزد . ومسدولا أى مشدودا . يريد أنهم يتكلمون
 بفضل عمامهم . وهذا تعريض له بأنهم مستعدون . لمنازلته
 (٢) الأراقم : حتى من تغلب منهم الأخطل وجعله عبيدهم تحقيرا له
 (٣) من ترضيه : يريد الأخطل

وأشعارهم ما حل بهم من ظلم ، وما لا قرا من عسف ، واستطاعوا بما صدر
عنهم من قول رائع مؤثر أن يكتسبوا قلوب الناس ، وأن يبحثوا فيها
الخط والفضيلة على هؤلاء الظالمين .

٥

على أن الحق أن معاوية كان يسمح بحكمه وصفحه عن يحمل عليه بلفظ
أو يخاشنه في قول ، وهو الذي كان يقول : لو كان بيني وبين الناس شجرة
ما انقطعت ، قيل له : وكيف ذلك ؟ فقال : إن هم شددوا أرخيت ؛ وإن
أرخوا شددت . وإن لم تكن إلا كلمة يشتفي بها قائلها لجليلها دبر أذن
وتحت قدمي ، ويقول في إحدى مقالاته : إني كنت أخطب فيكم فيقوم
إلى القائم منكم فيكذبني على رءوس الناس فأحمل ذلك وأصفح .

يروى القلة شندي (١) : أن معاوية حج ، فسأل عن امرأة من بنى كنانة كانت
تنزل الحجون يقال لها العامرية ، وكانت سوداء كثيرة اللحم ، فأخبر بسلامتها ،
فجئ بها ، فقال : ما حالك يا ابنة حام ؟ قالت : است لحام أدعى ، إن عبتني
أنا امرأة من بنى كنانة . قال : صدقت : أتدريين لم أرسلت إليك ؟ قالت : لا أعلم
الغيب إلا الله ، قال : بعثت إليك لأسألك علام أحببت عليا وأبغضتني وواليت
وعاديتني ؟ قالت أو تصفيني يا أمير المؤمنين ؟ قال لا أعفيك : قالت أما
إذا أبيت فاني أحببت عليا على عدله في الرعية ، وقسمه بالسوية ، وأبغضتك
على قتالك من هو أولى بالأمر منك ، وطلبك ما ليس لك بحق ، وواليت
عليا على ما عقد له من الولاية ، وعلى حبه المساكين وإعظامه لأهل الدين ،
وعاديتك على سفكك الدماء ، ومورك في الفضاء ، وحكمك بالهوى ، قال :

ولذلك انتفخ بطنك وعظم أدياك . . . قالت : يا هـلذا بهند كانت تضرب
الأمثال لأبي . قال : يا هـلذا أرى قلنا لم نقل إلا خيرا ، إنه إذا انتفخ
بطن المرأة تم خلق ولد لها ، وإذا عظم أدياها تروى رضيعتها ، قال لها
فهل رأيت عليا ؟ قالت لقد كنت رأيت ، قال كيف كنت رأيت ؟ قالت
رأيت لم يفتنه الملك الذي فتك ، ولم تشبهه النعمة التي شغلتك ، قال لها ، فهل
سمعت لسكلامه ؟ قالت نعم . والله كان يحسب القلوب من المعنى كما يحسب
الزيت الطست من الصدا ، قال : صدقت ، فهل لك من حاجة ؟ قالت وتفعل
إذا سألتك ؟ قال : نعم ، قالت : تعطيني مائة ناقة حراء فيها خلها وراعيها قال
تصنعين بها ماذا ؟ قالت أغذى بألبانها الصغار وأستحيي بها السكار ، وأصلح
بها بين العشائر قال فإن أعطيتك ذلك فهل أحل عندك محل علي ؟ قالت :
ماء ولا كنت سديا ، وسرعني رلا كالصندان ، وفقى ولا كالك يا سبجان الله
أو دونه ، فأشأ معاوية يقول :

إذا لم أعد بالحلم مني إليكم فمن ذا الذي بعدى يؤمل للحلم
خذنيما هنيئا واذكري فذل ماجد جزاك على حرب المداوة بالسلم

ثم قال : أما والله لو كان عليا ما أعطاك منها شيئا ، قالت والله ولا
وبرة واحدة من مال المسلمين . . . ومن ذلك أن عقيل بن أبي طالب لما
اعتزل عليا لحاجة وحرض على أموال المسلمين أتى معاوية فأكرمه
وأعقد عليه ووسله وقضى حوائجه . وكانما شمر يفتنه عليه ، فقال له أنا
خير لك من أخيك علي ، فقال عقيل : صدقت إن أخى أثر دينه
على دنياه وأنت قد أثرت دنياك على دينك فأنت خير لي من أخى ، وأخى
خير لنفسه منك .

وجتمه معاوية ذات يوم فقال له : إن عليا غير حافظ لك فقد قطع
قربتك وعا وملك ولا اطمعك فقال له عقيل : والله لقد أجزل

العطية وأعظامها ، ووصل القرابة وحفظها ، ولسكنه حفظ أمانته إذ ختم ، وأصلح رعيته إذ أفسدتم ، وحسن ظنه بالله إذ ساء به ظنك ، فأكفف لا أبالك فانه عما تقول بهزل ، فمكت معاوية ولم ينطق .

ويمثل هذه المعاملة اللينة استقر الأمر لبني أمية ، وتوطدت أركان ملكهم ودرست دعائم حكمهم . على أن هذه الدولة كانت كما يقول الجاحظ عربية أعرابية يحرص خلفاؤها على الصبغة العربية في منطقتهم ، وفي مظاهر حياتهم فافظوا على الأساليب الرفيعة ، وبعثوا بأبنائهم إلى البادية رغبة في تقويم أسلتهم وتصحيح سلالتهم وفطرتهم ، وأهملوهم برواة الشعر وحفظه ، وأهملوهم غرائب القصائد ، واستقدموا لهم المربين والمؤدبين حتى نفقت سوق الأدب ، وراجت بضاعته ، وأصبح الخلفاء مقصدا الشعراء ، ومثابة الرواة من كل فج . بل إن الخلفاء أنفسهم كانوا يجمعون الشعراء في مجالسهم ، ويستشدونهم وينقدونهم ، ويسألون بعضهم رأيهم في معاني الآخرين ، ويعقبون على هذه الآراء بالموافقة أو المراجعة . وبجالس عبد الملك بن مروان وتقريبه للشعراء ، وكثرة سؤاله من أشعر الناس ، ومن أغزل الناس ، أو أمدح الناس ؟ وأى بيت أحجى ، أو أنخر ، أو أغزل ؟ مشهورة معروفة . .

انتشار اللغة

وقيامها بمقتضيات الملك والسياسة

لقد أثبتت اللغة العربية أنها لغة حية مرنة تستجيب لمقتضيات الحياة في يسر ، وتسرع إلى مطالبها في إسماع . فما عجزت إزاء حادث ، ولا عقلت عند مهمة . بل لبست للعظماء ثوبا قسيميا ومظهرأ فخاذا جديداً سميت به القصب ، وخففت الشاق ويسرت العسير . عاشت حيناً محصورة في بطن الجزيرة تدبر عن حاجتها ، وتستجيب لما يتردد فيها من مظاهر وصور ، فلم تتخلف في مظهر ، ولم تنكص إزاء حادث .

ثم جاء الإسلام شملت رسالته ، وتلقّت أمانته وعبرت عن فضائله ومراميه أصدق تعبير ، واشتقت من مرانها الفاظ رائعة لكل ما استجد من معنى أو طراً من صور . فلما وثب الدين الجديد على ما جاور الجزيرة من البشاع والأصقاع كانت هي البريد الذي حمله في رفق وأشرق به في سماعة وألف . وكان مظهرها الجميل الزاهي يمكن لها في الأسماع والقلوب ، ويدعو الناس دعاء قريباً إلى الإذعان لها والتماق بأهدابها ، حتى حذقها من ليس من أعمالها ، ونافس الدخول عليها الأصيل فيها . وقرض بها الشعر ، وسابق الغريب عنها أصحابها إلى أبواب الملوك والخلفاء فخطى بجوائزهم ، ونعم بعصايتهم . وذلك من أسمع البراهين على سمو خصائصها ، وجمال ميزاتها .

وعلى رغم اتساع الدولة الإسلامية وعظم رقتها ، وتباعد أطرافها ، وامتداد آفاقها ، إذ وصلت من الشرق إلى الهند والصين ، ومن الجنوب إلى السودان ، وامتدت إلى جميع بلاد الأندلس غرباً وسيرياً شمالاً . على الرغم من هذا فقد دخلت العربية إلى تلك الأصقاع غازية فاتحة فطحت لها الآفاق ، وتطامننت لديها الأفكار والقرائح . ومكن التعامل والاختلاط في البيع والشراء والتعاون

على جميع أعمال الحياة لهذه اللغة من أن تصبح لغة الجميع ، بها ينطقون ، وعليها يعتمدون في كل ما يبغون من شئون الحياة ، وإن جر هذا عليهم من ناحية أخرى بعض الوهن والفساد ، بسبب اضطراب السلائق المخيلة ، واختلاج الألسنة الغربية ، وقلق المنطق الأجنبي .

على أن هذه الدولة وقد استعندت لها مظاهر لم تكن موجودة ، ونهياً لها من صور الحياة وألوانها ما لم تألفه من قبل ، وجدت في اللغة خير مستجيب لهذه الحياة ، فالدولة تنزو وتقاتل وتنشئ الأساطيل ، وتتخذ البريد وتضرب النقود ، ويتخذ ملوكها الحجاب والحرس كما يفعل ملوك الأعاجم وينشئون الدواوين لتنظيم مظاهر الملك . واللغة لا تتغلب عن أداء مهمتها والقيام برسالتها في هذه الحياة الزاخرة .

لقد وثبت إلى دواوين الخراج فقرتها ، وكانت من عهد إنشائها مكتبة في العراق بالفارسية . وفي الشام بالرومية ، وفي مصر بالقبطية ، فعرب ديوان العراق من الفارسية في عهد عبد الملك بن مروان ، على يد صالح بن عبد الرحمن مولى بني تميم الذي أظهر للحجاج بن يوسف استعدادة لنقل الديوان إلى العربية فطلب منه أن يفعل ، وحاول الكتاب الفرس أن يحولوا بينه وبين هذا العمل وبذلوا له مائة ألف درهم ، على أن يظهر الهجر عن ذلك فأبى ، وتم على يده نقل الديوان . وكان عبد الحميد الكاتب يعرف له قدره ؛ ويقدر عمله ويقول : لله در صالح ما أعظم منته على الكتاب . وقد غاظ الكتاب الفرس عمله ، ورأوا أنه قد سد عليهم أبواب الرزق وقطع أسباب العيش ؛ فمكأنوا يقولون له : قطع الله أهلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية .

ونقل كذلك ديوان الشام من الرومية في عهد عبد الملك على يد سليمان

ابن مسرور .

ويقال إن السبب المباشر في هذا أن سرجون بن منصور الذي كان كاتباً على الديوان من عهد معاوية كان يستعير في نفسه الدل والتيه لاستقلاله

بأمر الحساب ، فلما غاظ عبد الملك بن مروان دله و تراخيه عن بعض ما يطلب ، استشار سليمان بن مسرور كاتبه على الرسائل ، فأبدى استعداداه لقل الديوان من الرومية إلى العربية ، فأظفره سنة حتى تم له ذلك . ولما علم مرجون بذلك داخله الحزن والألم ، وقال لكتّاب الروم : اطلبوا الرزق من غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم .

أما ديوان مصر فقد كان بالقبطية ، وقد تم تعريبه في أيام الوليد ابن عبد الملك ، على يد عبد الله بن عبد الملك بن مروان أمير مصر .

فلغة لا ترهتها هذه المظاهر المتزاحمة ، ولا تدجزها تلك الرسالة الضخمة ، بل تجد منها مدداً فياضاً ، وما عونا قريباً ، وثروة مخزنة ، وقدرة قادرة على الاقتباس والاشتقاق والتعريب : هي من غير شك لغة صالحة لمظاهر الملك ، متمشية مع مقتضيات السياسة . وانظاره واحدة إلى ما حفلت به من ألفاظ استعملها ألوان الحياة الجديدة ، وخلقتها تطورها ، تدل على ذلك أبين دلالاته .

فمن تلك الألفاظ : الدبابة ، والمرادة ، والمنجنيق ، والثفور ، والعواصم ، والقصبات ، والولاية ، والحكومة ، والسكة ، والدفاتر ، والجرائد .. ومن الألفاظ المعربة : الطست والطبق والبلور والكيمك والاوز والطنبور .

ولو شئنا أن نستقصى لذهبتنا في ذلك إلى مدى بعيد . وبخلاصة ذلك أن اللغة قد استجابت لجميع مطالب الحياة ، وقامت بما استجد لهذه الدولة من مظاهر الملك ، ونهضت بكل ما أتيج لها من ألوان الحضارة .

طـرـوء اللـحـن والعمل على مفاوخته

- ١ -

عاش العرب في جزيرتهم قبل الإسلام محصورين بين جنباتهما ،
متنقلين في ربوعها وأرجائها ، لا يمدو عليهم دخيل ، ولا يختلط بهم
أجنبي ، ومن هنا ظلت سلاقتهم سليمة لا يتسرب إليها زيف ، وبقيت
السننهم فصيحة لا يساورها هجنة ولا ضعف ، لأنهم نشأوا نشأة عربية
خالصة ، وارتضعوا أفريق الإعراب من قديم الزمن ، ورثوا سلامة
المنطق عن آبائهم وأجدادهم ، على تقادم العصور وتطول الخلق .

٢

فلما جاء الإسلام ، وبعث محمد صلى الله عليه وسلم بلسان عربي مبين
إلى الناس ، يهديهم إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، واقتضى عموم رسالته
وشمول دعوته أن يدعى إلى دينه أقوام ليسوا من أهل لغته ، ولا يستطيعون
التكلم بلسانه ، كان لا بد أن يختلط بهم العرب ، وأن يداخلوهم ويتحدثو
إلهم ، ويفهموهم الدعوة ، ويلبثوهم الرسالة . ثم بعد الجهاد الشاق ، والكفاح
الطويل ، كان الملك الإسلامي والدولة الجديدة واتساع رقعتها وامتداد
أطرافها ، وتبع هذا اختلاط الغالبين بالمفصولين ، وارتباط الحاكمين
بالمحكومين ، وانفد الفاتحون من الأعاجم عبيدا وخداما وحاضنات ومربيات
أشرف على تربية أبنائهم وتنشئتهم ؛ إذ أقبلت عليهم الدنيا ، وأسرع إليهم
ترفها ، وتكاثر لديهم زخرفها وزينتها ؛ ففلسا عن ذلك بعض الخلل في
النطق ، والاضطراب في الالسنه .

ولقد راق لكثير من العرب جمال البلاد المفتوحة ، وكثرة خيراتها ،

ووفرة أرزاقها ، فزحوا إليها واستوطنوها ، وعاملوا أهلها وعاشروهم ، إذ آخى
 بينهم الاسلام ، وجعلهم الدين مواسية كآسنان المشط ، لا فضل لعربي على عجمي
 إلا بالتقوى ، فأصهروا إليهم ، وأعقبوا منهم ، وامتلكوا كذلك منهم
 بحكم التمسع والنبلة ، ولذلك نشأ في الامصار الاسلامية جيل من الناس
 جديد النشأة لهجته ، واضطربت ملكته ، وتسرب الفساد إلى منطقته ،
 ووجدت له لغة مخاطب هي مزيج من العربي والعجمي الذي يختلف باختلاف
 البيئات ؛ فلون الفساد في العراق يبعث من الفارسية لغة أهل البلاد ، وفي
 الشام من الرومية ، وفي مصر من القبطية .

أما العرب الأصليون فقد ظلت ألسنتهم سليمة لم يشبهها تحريف ،
 وقيمت لغتهم صحيحة لم يطرأ عليها فساد . وحتى هؤلاء المحدثون الذين
 كانت نشأتهم ولادة الاختلاط والامتزاج ، كانت محادثاتهم في مجموعها
 عربية ، وإن سرى إليها اللحن ، وفشت فيها العجمة .

ولا يظن ظان أن التحريف لم يتمكن من الالسة ، وأن اللحن لم
 توجد له مظاعر إلا في العصر الأموي ، حيث اتسعت الدولة وامتد ظلمها ،
 وفشت الخلطة وتم الامتزاج ، فان من طبائع الالسة أن ينجس بها الفصح ، ويلتوي
 عليها النهج في بعض الأحيان . وهذا يحدث في كل عصر وفي كل زمان ، حتى
 ليروي عن الرسول صلى الله عليه وسلم أن رجلاً لحن بحضرتة ، فقال : أرشدوا
 أحاكم فقد ضل ، ولكن ذلك كان يقابل بالأزدراء والامتعاض ، ويجدد من
 الاستهجان والاستفزاز ما يقضي عليه لوقته ؛ ولقد قيل إن عمر بن الخطاب مر
 بقوم يقتاضلون ، ورى بعضهم فأخطأ ؛ فقال له عمر : أخطأت ، فقال : بأمر
 المؤمنين (نحن متعلمين) ؛ فقال له عمر : والله لحاظك في كلامك أشد علينا من
 خطئك في نضالك ؛ ثم قال : احفظوا القرآن وتفقهوا في الدين ، وتعلموا اللحن^(١) .

ويروى أن كاتب أبي موسى الأشعري كتب عنه كتابا إلى عمر بن الخطاب
فلحن فيه وقال : (من أبو موسى) ، فأرسل إليه عمر يقول : قنع كاتبك سوطا .
ثم إن من شأن الدخيل على لغة غير لغته ، والطارىء على لسان غير لسانه ،
أن يتعثر لطقه ، وتلتوى طبعته ، ويترنح لسانه ، وما يزال كذلك حتى يستطيع
بمضى الزمن ، وتتابع الأيام ، أن يندمج في اللغة الجديدة ، وتصبح سليقة فيسه
وطبيعية له ، أو أشبه بسليقته وطبيعته ، ولذلك قيل إن بلالا كان يرتفع الحكمة
حبشية ، وسلمان كان يميل لسانه إلى الفارسية ، وصهيب كانت فيه لكمة رومية .
لكن هذا في صدر الإسلام كان قليلا لقلة من غلط العرب من الأعراب .

- ٢ -

أما في عصر بني أمية فقد شاع الاختلاط وامتزج العرب بغيرهم ، ورحل
كثير منهم إلى الأمصار المفتوحة ، فسكنوها وعاشروا أهلها ، وأصهروا إليهم ،
وخالطوهم خلطة القرابة القريبة ، وشب وأيفع ذلك الجيل الذي كان وليد
الاختلاط . ومن هنا تمكن الفساد من الألسنة ، وعلق الخلل بالسلايق ، وجثم
الضعف على المالكات ، ووجد الخاصة والحراس على اللغة والكفون بالعروبة أنه
لابد من توجيه العناية إلى أبنائهم وناشئتهم ، فجلبوا لهم الرواة والمؤدبين ، ايشبوا
على الفصيح ، وبنشأوا على الأعراب .

على أن تيسار العجمة لم يلبث أن جرف ما أمامه من مقساومة ؛ وطفى
على الخاصة والعامة ، حتى أصبح الفصيح المنطيق يخشى أن يتسرب إليه من
اللحن ما لم يكن يتوقعه ؛ وحتى كان عبد الملك بن مروان وهو المعروف
بقوة بيانه وفصاحة لسانه يقول : شيدني مسعود المنابر وتوقع اللحن .

وبعد أن كان اللحنون في غير هذا العصر يعدون قلة قليلة ، أصبح
الناس يعدون على أصابع اليد من لا يلحن في إعرابه . وقد روى عن
الإصمعي : أربعة لم يلاحظوا في جدد ولا هزل : الشعبي وعبد الملك بن مروان

والحجاج بن يوسف الثقفي وابن القريه والحجاج أفصحهم .. وحتى هؤلاء الأربعة لم يعلم بعضهم من شجنة اللحن ، فان أفصحهم وهو الحجاج أثر عنه أنه قال مرة لشعبي : كم عطاؤكم (بنصب عطاء) ؟ فقال : ألفين (بالنصب) ، فأدرك الحجاج خطأه وأعاد السؤال مصححاً وقال : كم عطاؤكم ؟ فقال الشعبي : ألفان ، فقال الحجاج : فلم لحنتم فيما لا يلحن فيه منكم ؟ فقال : لحن الأمير ، فلحننت وأعرب فأعربت ، ولم أستكن ليلحن الأمير فـأعرب أنا عليه فأكون كالمقرع له بلاطه ، والمستطيل عليه بفضل القول .

ويروى ابن سلام في طبقات الشعراء أن الحجاج قال ليحيى بن يعمر : أسمعني لحن ؟ قال : في حرف واحد قال : في أي ؟ قال في القرآن ، قال ذلك أشنع فما هو ؟ قال : تقول : قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم .. إلى قوله أحب فتقروها بالرفع ، فقال : لا جرم ، لا أسمع لي لحناً . ثم ألحقه بخمرسان غاضباً عليه

واللحن دائماً كان يقابل بالاستنكار والتجهم ، وكان عبد الملك بن مروان يقول : الأعراب جهال الومضيع واللحن شجنة للشريف ، وكان يستسقط من يلحن ، حتى يروى عنه أن رجلاً من عليّة أهل الشام استأذن عليه وبين يديه قوم يلبسون بالشطرنج ، فقال يا غلام فطما ، ودخل الرجل ، فلما تكلم لحن ، فقال عبد الملك : يا غلام استكشف ففما الخطأ فليس للاحن حرمة .. ومن وصاياهم في هذا : أسمعوا من ألسنتكم فان المرء تنويه النائبة فيستعير الثوب والدابة ولا يحسب أنه يستعير اللسان .

وقيل أول لحن سمع بالبادية : هذه عصاتي ، وأول لحن سمع بالعراق : حتى على الفلاح (بكسر الهمزة) وهي مفتوحة .

وكان هناك لحن آخر دفع إليه صديف الملكة والقصور في التعبير عما تعلوى عليه النفس من أفكار وآراء ، أو يحلبه اضطراب الفؤاد حين مباغته حادث أو مفاجأة أمر جلال ، كما هنا الذي يروى عن عبد الله بن زياد ، حين قال للجند وهو يخطب فيهم : افتدوا لي سيوفكم ، وقد عير بذلك يزيد بن مفرغ بقوله :

وَيَوْمَ فَتَحْتَ سَيْفَكَ مِنْ بَيْدٍ أَضَعْتَ وَكَانَ أَمْرُكَ لِلضِّيَاعِ
وَقَدْ عَدَّ عَلَى خَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْفَسْرَى أَنَّهُ قَالَ مَرَّةً وَهُوَ عَلَى الْمَنْبَرِ : أَطْعَمُونِي
مَاءً ، وَقَدْ عِيرَهُ بِذَلِكَ يَحْيَى بْنُ زُوَيْلٍ بِقَوْلِهِ :

بَلِ الْمَنْابِرُ مِنْ خَوْفٍ وَمِنْ وَهَلٍ ^(١) وَاسْتَطْطَمَ الْمَاءُ لِمَا جَدَّ فِي الْحَرْبِ
وَأَلْحَنَ النَّاسُ كُلَّ النَّاسِ قَاطِبَةً وَكَانَ يُولَعُ بِالتَّشْدِيقِ فِي الْخُطْبِ
يَقُولُ الْمَبْرَدُ : إِنْ خَالِدًا كَانَ مُتَقَدِّمًا فِي الْخُطْبَةِ ، مُتَنَاهِيًا فِي الْبَلَاغَةِ ، فَخَرَجَ
عَلَيْهِ الْمَغِيرَةُ بْنُ شَيْبَةَ بِالْكَرْفَةِ فِي عَشْرِينَ رَجُلًا ، فَمَطَّطُوا بِهِ ^(٢) ، فَقَالَ خَالِدُ :
أَطْعَمُونِي مَاءً ، فَعِيرَ بِذَلِكَ .

عَلَى أَنَّ هَذَا اللَّحْنَ مَعَ شَيْوَعِهِ وَكَثْرَتِهِ ، وَمَعَ اسْتِشْرَائِهِ وَتَغْلُغْلُغِهِ ، كَانَ يَقَاوِمُ
بِشِدَّةٍ ، وَيُقَابِلُ دَائِمًا بِاسْتِهْجَانٍ وَاسْتِسْكَارٍ ، لِأَنَّ الْقَوْمَ إِذَا ذَاكَ عَرَبٌ ، يَزْدَهِيهِمْ
جَمَالَ الْفَصَاحِي ، وَتَسْتَهْوِيهِمْ رَوْعَةُ الْأَعْرَابِ . لِأَنَّهُمْ شَدِيدُو الْحِفَافِظِ عَلَى كِتَابِهِمْ
الْكَرِيمِ . وَمِنْ هُنَا أَنْفَوْا مِنَ اللَّحَنِ وَحَارَبُوهُ : وَعَابُوا عَلَى أَصْحَابِهِ مَا مَسَّهُمْ مِنْ
ضَرَرٍ : أَوْ لَحَنَهُمْ مِنْ شَرِّهِ وَوُزْرِهِ . حَتَّى لَبِثُوا أَنْ رَجُلًا دَخَلَ عَلَى زِيَادٍ ، فَقَالَ :
إِنْ أَبَوْنَا ذَلِكَ ، وَإِنْ أَخِينَا غَضَبْنَا مِيرَاثَنَا مِنْ أَبَانَا ، فَقَالَ زِيَادُ ، مَا ضَمِيتَ مِنْ
نَفْسِكَ أَكْثَرَ مِمَّا ضَمِيتَ مِنْ مِيرَاثِكَ ، فَلَا رَحِمَ اللَّهُ أَبَاكَ حِينَ تَرِكَ وَلَدًا مِثْلَكَ .

وَإِخْتَصِمَ رَجُلَانِ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، فَجُمِلَا بِلَحْنَانِ ، فَقَالَ الْحَاجِبُ :
قَمَا فَقَدْ آذَيْتُمَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِلَحْنِكُمَا ، فَقَالَ عُمَرُ : أَنْتُمْ وَاللَّهِ أَشَدُّ إِيْذَاءَ لِي مِنْهُمَا .
وَتَكَلَّمَ رَجُلٌ فَسَبَقَ إِلَى لِسَانِهِ مَا لَمْ يَرِدْ فَلَحْنٌ ، فَقَالَ : حَسْبِيَ اللَّهُ ، وَاللَّهُ لَقَدْ
وَجَدْتَ حَرَارَتَهَا فِي حَاقِي قَبْلَ أَنْ أَتَكَلَّمَ بِهَا .

وَدَخَلَ أَعْرَابِي الْمَدِينَةِ ، فَسَمِعَ النَّاسَ يَلْحَنُونَ ، فَقَالَ : يَا سُبْحَانَ اللَّهِ ، يَلْحَنُونَ
وَيَرْبَحُونَ ؟

(١) الرهال : الغنم والفرع . (٢) المنطبعة : تنابع الاصوات واختلاطها في الحرب
وغیرها . ومططوا به أى صاحوا .

وكان يحيى بن نون يقول : اللحن في المناطق أقبح من آثار الجدرى في الوجوه
وقال أبان بن سعيد : اللحن في الرجل ذي الهيبة كاللحن في الثوب الجديد
هذه المقامومة النيفة لتظاهر اللحن . إنما دعا إليهما الحرص على احترام
الملائق وتقديم الفطر التي طعموا عليهما ؛ وكانت مظاهر المقاومة تتمثل
مستنكر اللحن كما رأينا ؛ وفي الاحتراس بقلبي اللغة عن الأهراب الخاص
بالعلماء والمؤدين . فلما ضمنت الألسنة أمام تياره الجارف ، وطوفانه الطاغية
مض العلماء لوضع النحر والشكل والأعجام .

عناية الخلفاء والأمراء باللغة والأدب

كان لخلفاء والأمراء عناية بالغة ، واهتمام عظيم ، بالأدب واللغة . ولو
شئنا أن نضرب الأمثال ، ونستقصي الأخبار ، ونستعرض الوقائع عن عنايتهم هذه
واحتفالهم بها تجود به القرائح ، من صور بارعة ، ومكان رائعة ، وأخيلة نادرة ؛
واهتمامهم بالمظاهر التي ترفع من شأن الأدب ، وتعلي من قدره ، وتمسك له في
البقاء والجلود . لرجحنا أن يحصى كل ذلك لما وصفتنا مئات الصحف .
ولهذه العناية أسباب ومظاهر ، سنوضح أهمها في هذا البحث :

- ١ -

كان خلفاء بني أمية عرباً ، يطربهم المنى الرائق ، واللفظ الفائق ، ويعجبهم
الأسلوب الناضج ، والتعبير البديع ، والتصوير الجميل ؛ لما فطروا عليه من ذوق
حساس ، وسليقة مرهفة ، وبصيرة نافذة ، وذكاء متوقد ، وعلم غزير ، ومعرفة
بأنساب القبائل وأحسابها ، ومفاخرها ومثالبها .

فلا عجب أن تزداد عنايتهم بكل مظهر يعلى من شأن الأدب ، وأن تعظم
رغبتهم في تشجيع الأدباء ورعاية الشعراء وصيانة التراث الأدبي ، على نحو
ما سجلته كتب الأدب ، ووعته صحائف التاريخ ، ونقله الرواة .

- ٢ -

رحمته عليه

وكان من وسائلهم إلى حفظ ملكهم ، والابقاء على سلطانهم ، أن عمدوا
إلى إثارة العصبية ، وبعث الخصومات ، وإحياء ما اندثر من منافسات
الجماعية وأحقادها ، ايشغلوا الناس بذلك عن مواربتهم على الملك ، ومساورتهم

على السلطان ، ومنازعتهم فيها لاستقرار لهم من أمور الخلافة . فبادر الشعراء إلى تسهيل ذلك في أشعارهم ، وتصويره في قصائدهم ، وشفلوا بالحديث عن أجداد القبائل ومغازيها ، ورغبة في مدح ، أو شفاء لحقد ، أو طمأناً في عطاء .

- ٣ -

وكان الخلفاء والأمراء نقدة كلام ، وأمراء بلاغة ، وفرسان فصاحة . وألباء أدباء . يميزون جيد الأدب من ودبسه . ويعرفون صحيحه من زائفه . ويقدرّون منازل الشعراء . ويزنون الكلام بميزان صحيح . فيقبلون الجيد وينذرون عليه ، ويستنكرون الضعيف الزائف ويدلون على موضع نقصه ومكان عيبه ، ذلك لأن لهم من سلائقهم العربية ، وفطرتهم الأدبية ، وعلمهم بشوارد الأدب وخرائب الأشعار ، ما يعينهم على صدق الحكومة ، ويدفعهم إلى حسن التقدير وجمال المثوبة . وهل هناك أدل على صفاء الذوق ، وقوة الملاحظة ، ودقة النقد وصادق التمييز ، مما يؤثر عن عبد الملك الخليفة الأديب الأريب ، إذ دخل عليه ابن قيس الرقيات وقد أمنه بعد خروجه عليه ، فدحه بقوله :

إن الأغر الذي أبوه أبو العاصي عليه الوقار والحب
يمتدل التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب
فقال عبد الملك يا ابن قيس : تمدحني بالتاج كأن من ملوك الحجم ، وتقول في مصعب :

إما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلام
مامكه ملك عزة ليس فيه جهروت منه ولا كبرياء

ثم قال له عبد الملك : أما الأمان فقد سبق لك ولكن لا تأخذ في المسادين عطاء أبداً وما يدل على شدة ملاحظتهم وحضور بديهتهم وألمعيتهم في النقد ، أن أبا زيد الأسدي دخل على إبراهيم بن هشام فأشده : (يا ابن هشام يا أخا الكرام) فغضب إبراهيم وقال : إنما أنا أخوهم ، وكأنني لست منهم ، ثم أمر به فضرب بالسياط ولما أدرك الشعراء أن الخلفاء والأمراء ينجحون جيد الأشعار ، ومتخير

القصاص ، منزلة العار ، ويثيرون عاهة مشربة دالة ، وأسمهم يتحجبون بطرطان
 الغيب ، ويفتنون في سحر عجيبة لمكان النقص ، ويخرج الزمان ، ويخرج قلوبهم
 يعاقبون على ذلك عقوبة أقاربهم ، وحس العطاء ، وقبض أصابعهم ، لمسا يبقن لشعره من
 ذلك ، حرصوا أشد الحرص على التجويد والتفريب ، وبالفوا أساطير الدنيا في تنعيم
 بنات أفكارهم ، تهذيب قصائدهم ، تفتيح لهم القلوب المغلقة ، وتليق نفوس
 العصابة ، وتستدر المطايا السنية ، وتستل داني النفس من حقد دفين ، وتغلي مقيم .

ب ع

وكان الخلفاء والأمراء يطربون أيما طرب لسماع الجيد من المدح ، والبليغ
 ن الثناء ، وكانوا في نشوة هذا الطرب ، وفي غمرة تلك الأريحية : يصفون
 عن المسىء ، ويعفون عن المذنب ، ويقبلون شفاعة الشعر :
 يروى أن يزيد بن عبد الملك رد الأحوص الشاعر من منفاه ؛ لبيت شعر له
 غنته فيه (جميلة) المغنية ، وهو قوله :

كريم قریش حين ينسب والذي أقربت له بالملك كهلا وأمردا
 فطرب يزيد وقال : ويحك من كريم قریش هذا ؟ قالت : أنت ، وقد قاله
 الأحوص المنفي ، فكتب من فوره برده ، وأنفذ به حللا سنية وأدناه وقربه ؛ وقال
 له يوما : لو لم تمت إلينا بحق ولا صهر ولا رحم إلا بقولك :

وإني لأستحييكمو أن يقودني إلى غيركم من سائر الناس مطمع
 لكم فاك ذلك عندنا .

ويؤثر أن الحجاج طالب العدیل الشاعر ، حتى لم يجد منه هربا ؛ فدخل عليه
 وأنشد ابن يديه :

خليل أمير المؤمنين وسيفه	الكل إمام صاحب رسل
به نصر الله الخليفة منهمو	وأنت ملكا كاد عنه يزول
فأنت كسيف الله في الأرض خال	تصول بغير الله حين تسول

فقال له الحجاج : أولى لك (١) ، قد فخرت ، وفرض له ، وأعطاه عطاه .

وكان يسر الخلفاء أن يتقربوا إليهم بقضاء الأظراء ، وأن يخلصهم بها ، فلا يتجاوزهم إلى غيرهم من الولاة والعظماء .

حتى إن عبد الملك كان يحس في نفسه موجدة على جرير لا تقطعه لمذبح الحجاج . وكما حاول جرير أن ينشده منعه يقال له إنما أنت شاعر الحجاج . ولقد أراد الحجاج أن يقدم إليه يداً بأنشاده بين يدي أمير المؤمنين ، فأرفده مع ابنه محمد إليه ، فلما دخل عليه قال له أنشدني ما قلت في الحجاج فأنشده :

صبرت النفس يا ابن أبي عقيل محافظة فكيف ترى الشرابا
ولو لم يرض ربك لم ينزل مع النصر الملائكة الغضابا
إذا سمر الخليفة نار حرب رأى الحجاج أثمها شهابا
قال صدقت ، هات ، فأنشده :

طربت لعمد هيجه المنازل وكيف تصابي المرء والشيب شامل ؟
يقول جرير : فما فرغت منها حتى خيلت الغضب في وجه أمير المؤمنين ؛ ثم قال هات ما قلت في الحجاج ، فأنشده :

هاج الهوى لنفؤادك المتهاج فانظر بتوضيح باكر الإحداج (٢)
ومنها :

من سد مطلع التناق عليهم أم من يصول كهولة الحجاج
أم من يغار على النساء حفيظة إذ لا يثقلن بغيرة الأزواج
إن ابن يوسف فاعلموا وتيقنوا عاضى البهيرة واضح المنهاج

(١) كلمة تهديد ووعيد ، أى قاربك ما يملكك والمراد بها هنا الاستحسان ،

(٢) جمع حادج بالكسر : وهو مركب للنساء كالخففة .

وما زال عبد الملك يقدم الشمرام ويؤثر جريرا ، إلى أن توسل إليه محمد بن

الحجاج ، فأذن له في مدحه ، فأثبته قصيدته :

أتصنعو أم فؤادك غير صاح عشية هم صاحبك بالرواح ؟
يقول الماذلون علاك شبيب أهدنا الشيب بمنعنى مراحى (١)

ثم قال :

تمزت أم حاضرة ثم قالت : رأيت الواردين ذوى امتاح (٢)
تعمل وهي ساعبة بليها بأنفاس من الشيم القراح (٣)
سامح البهـور الجنين أذاة اليوم وانتظري امتباحى
ثقي بالله ليس له شريك ومن عنده الخليفة بالانجام
أعثنى يا فداك أبى وأمى بسبب منك إنك ذو ارتياح
فانى قد رأيت على حقا زيارتي الخليفة وامتداحى
سأذكر إن رددت إلى ريشى وأنبت القوادم فى جناحى
أستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح ؟

فطرب عبد الملك ، وجعل يقول : نحن كذلك وما زلنا كذلك . ثم قال له أترى
أم حورة ترويهما مائة ناقة ؟ فقال : إذالم تروهما يا أمير المؤمنين فلا أرواها الله .
وعما يدل على سلامة أذواقهم ، ورغبتهم فى إثارة السبق والمنافسة بين الشمرام ،
ماؤثر من أن الفرزدق وجريرا اجتمعا عند عبد الملك ، فقال الفرزدق : النوار
طالق ثلاثا إن لم أقل شعرا لايسـطـيع ابن المـراخـة (٤) أن ينقضه أبدا ولا يجد فى
الزيادة عليه مذهبا ، فقال عبد الملك ما هو ؟ قال :

(١) المراح : النشاط والاختيال (٢) امتح : أخذ المعطاء
(٣) ساعبة : جائعة أو عطشى ، والانفاس الجرعات جمع نفس أى جرعة ، الشيم : البارد .
القراح : الماء الخالص

(٤) المـراخـة الاتان التى لا تمنع عن نفسها وقد سميت كذلك أم جرير تشبها لها بالاتان أو قيل سميت
بذلك لأنها ولدت فى مراغة الابل أى مكان تمرغها . وهذا كناية عن الخسة وأنها من خدم الابل ورجائها

فأني أنا الموت الذي هو واقع بنفسك فانظر كيف أنت مزاوله
وما أحد يا ابن الآتان بوائل من الموت إن الموت لأشك نائله
فأطرق جرير قليلا ثم قال : أم حذرة طالق ثلاثا إن لم أكن نقضته وزدت
عليه ، فقال عبد الملك : هات فقد والله طالق أحكما لا محالة ، فأنشد :

أنا البدر يخشى نور عينيك فالنفس بكفيك يا ابن القين هل أنت نائله ؟
أنا الدهر يفنى الموت والدهر خالد بجثي بمثل الدهر شيئا يطاوله
فقال عبد الملك : فضلك والله يا أبا فراس ، وطلق عليك .

واجتمع جرير والفرزدق والأخطل في مجلس عبد الملك فأحضر بين يديه
كيسا فيه خمسمائة دينار ، وقال : ليقبل كل منكم بيوتا في مدح نفسه ، فأبكم غلب فله
الكيس ، فقال الفرزدق :

أنا القطران والشعراء جرير وفي القطران للجرير شفاء
وقال الأخطل :

فأن تك زق زاملة فاني أنا الطاعون ليس له دواء (١)
فقال جرير :

أنا الموت الذي آتى بعلبيكم فليس طارب مني نجاء
فقال عبد الملك : لعمري إن الموت يأتي على كل شيء .

وهل بعد هذا إثارة لشياطين الشمس وتبليغ لألوانه ، وبعث للجيدة ؟

وهي أمثلة ذلك ما يروى من أن عبد الملك وسفت له جارية لرجل من
الأنصار ذات أدب وجمال ، فساومها فيها فاعتصم واعتصمت ، ثم أخذها الشن
وأخذها على كره منها فأعجب بها عبد الملك وأمرها بلزوم مجلسه والقيام على رأسه

فبينما هي عنده ومعه ابناه الوليد وسليمان ، وقد أخلاهما للذاكرة ، إذ أقبل عليهما فقال : أى بيت قالته العرب أمدح ؟ فقال الوليد : قول جرير فيك :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى المالمين بطون راح
قال سليمان : بل قول الأخطل :

شمس المدارة حتى يستفادهم وأعظم الناس أحلاما إذا قدروا
فقال الجارية : بل قول حسان :

يغشون حتى ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل
فأطرق عبد الملك ، ثم قال وأى بيت قالته العرب أرق ؟
فقال الوليد قول جرير :

إن العيون التى فى طرفها حور قتلنا ثم لم يحيين قتلانا
فقال سليمان : بل قول عمر بن أبي ربيعة :

حبذا رجوعها إليها يديها من يدي درعها تحمل الأزارا
فقال الجارية : بل بيت حسان :

لو يدب الحولى من ولد الذر عليها لأندبتها السكوم (١)
ثم قال عبد الملك : أى بيت قالته العرب أشجع ؟ فقال الوليد قول عنتره :
إذ يتقون بى الأسنة لم أخم عنها ولمكنى تضايق ومقدمى (٢)
فقال سليمان : بل قوله :

وأنا المنية فى المواطن كلها والطعن منى سابق الآجال

(١) أى لو يدب الصنير من ولد الذر على جلدها لأثر فيه وجرحه . والذر : صغار النمل . وليس المراد بالحولى هنا ما أتى عليه الحول . وإنما جعله فى صغره كالحولى من ولد الحافر والخف . وأندبتها : أثرت فيها من التدب وهو أثر الجرح . والسكوم : الجراحات .

(٢) لم أخم : لم أجب عن الأسئلة ولمكنى تعذر موضع إقدامى من شدة الزحام فتأخرت لذلك .

فقال الجارية : بل بيت كسب بن مالك

فصل السوف إذا قصرن بخطونا قدما ونلاحقهما إذا لم تلحق
فقال عبد الملك : أحمذت ، وما نرى شيئا من الاحسان إليك أبلغ من ردك
إلى أهلك ، فأجمل كسوتها وأحسن صلتها وردها إلى أهلها .
ولما بلغ عبد الملك قول جرير يهجو الأخطل .

هذا ابن عني في دمشق خليفة - لو شئت ساقكم إلى قطينا
قال ساراد ابن المراغة على أن جعلني شرطياً له ، أما إنه لو قال : لو شاء
ساقكم إلى قطينا ، لسقتهم إليه كما قال .

٥

ولقد كان الخليفة من خلفاء بني أمية ينشد بيتا ويغيب عنه قائله فيأرق جفنه ،
ويبدو به منهجه ، ربييت في طلب الرواة والعلماء حتى يعرف قائله ، ثم يخلع
عليهم العطايا ، ويهب لهم الجوائز ، ويصلهم بأكرم الصلات .

وكان هذا من المراحل التي شجعت على رواية الشعر وحفظه وتلقى الأشعار
والبحث عنها لدى عارفها والملمين بها ... وهذه العناية البالغة من جانب الخلفاء
أحببت من أشعار العرب القديمة ما أوشك الناس أن ينسوه وما قاربوا أن
يغفلوه ، إذ كان الراوية يحظى من عطايا الحكام بمثل ما يحظى به الشاعر .

وفي هذا الخبر الذي يرويه حماد الراوية دلالة على مبالغ ما كانوا يبذلون من
عناية بالحفظ والرواية .

يقول حماد : كنت منقطعا إلى يزيد بن عبد الملك ، فكان هشام يحفوني لذلك
فلما أفضت الخلافة إلى هشام خفته ، فمكثت في بيتي مدة لا أخرج إلا لمن أتني
به من الإخوان سرا ، فلما لم أسمع أحدا يذكرني سنة أمنت ، فخرجت فسايت الجمعة
فاذا شرطيان يقولان : يا حماد أجب الأمير يوسف بن عمر ، فقلت في نفسي : من
هذا كنت أجد ، وجاءت أن أتني أهلي أو دعمهم فلم يمكنني ، فلما صيرت إلى الأمير

يوسف رمى إلى كتابا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله هشام أمير المؤمنين ، إلى يوسف بن عمر ، أما بعد ، فإذا قرأت كتابي هذا فابعث إلى حماد الراوية من يأتيك به غير مروع ولا متعصب^(١) وادفع إليه خمسمائة دينار وجملا يسير عليه إلى دمشق . فلما صرت إلى هشام فدنوت منه قال لي : أتدري فيم بعثت إليك ؟ قلت : لا : قال : بعثت إليك لبيت خمار ببالي لم أدر قائله ، قالت : وما هو ؟ قال :

فدعوا بالصبح يوما فجاءت قينة في يمينها إبريق

فقالت هذا يقوله عدو بن زيد في قصيدة له ، قال فأشدها ، فأشدها :

بكر الماذلون في وضوح الصبح : ألا تستفيق ؟

ويلومون فيك يا ابنة عبد الله والقلب عندكم موثوق

لست أدري إذا كثروا النذل فيها أعدو يلومني أم صديق ؟

فدعوا بالصبح يوما فجاءت قينة في يمينها إبريق^(٢)

فدتمته على عمار كعين الديك صفي سلافا الراوق^(٣)

مزّة قبل مزجها فاذا ما مزجت لك طعمها من يذوق

وطعنا فوقها فقايع كالدر صغار يثيرها التصفيق^(٤)

ثم كان المزاج ماء سحاب لاصري آجن ولا مطروق^(٥)

فطرب هشام ، ثم قال أحسنت ، فسل حاجتك كائنة ما كانت ، قال حماد : فقلت

(١) تفعّله أكرهه في الأمر حتى فاق (٢) الصبح . شراب الصبح

(٣) الفدام ككتاب وسحاب وشداد : المصفاة ، وإبريق مقدم كعظم ومكرم عليه . مصفاة . وفدتمته وخدمته عليه . والعمار الخمر . سميت بذلك لمعاقرتها (ملازماتها) الدن أو لعقرها شاربا أي قيدها إياه إياه عن المشي . وكعين الديك ، أي في الصفاة . والراوق المصفاة وإناء الشراب الذي يروق به السكان .

(٤) الفقايع نفاخات الماء والتصفيق مزج الخمر بالماء .

(٥) اللصري : الماء بظول مكشبه . وآجن : متغير اللون والطعم ، والمطروق : الذي طرقته الأبل فبالت فية وعكرته .

إحدى الجاريتين ، الجاريتين كانتا واقفتين في خدمة الخليفة ، فقال : هما لك . ثم بت في ضيافة الخليفة . فلما أصبحت إذا بمدة من الخدم بيد كل منهم بدرة فقال لي لي أحدهم . أمير المؤمنين يقرئك السلام ويقول لك : انتفع بهذا المال فأخذته والجاريتين وانصرفت .

واقعد يقول قائل : إن هذه الروايات وأمثالها مما ينسجه خيال الوضاعين وتسمو إليه آمال الطامعين . وإن ما يكتنفها من المبالغات يحيلها أو يجعلها قريبة من المستحيل ، ونحن لسنا بصدد النفي أو الإثبات ولا بسبيل البحث عن الامكان والإحالة ، ولكننا نجزم بأن مثل هذه الصور هي في الواقع انعكاس لما وقر في الأذهان واستمكن في النفوس من تقدير الخلفاء والولاة لقيم الشعراء ، ومنازل الأدباء ، وجهد الرواة فيما وصلوا إليه من أخبار ووعده من آثار ، حتى ليؤثر عن معاوية ، أنه كان يقول : اجعلوا الشعر أكبر همكم ، وأكثر آدابكم ، فلقعد رأيت ليلة الحرير بصفين ، وقد أنيت بفرس أغر محجل ، بعيسد البطن من الأرض وأنا أريد الحرب ، لشدة البلوى ، فها حملني على الإقامة إلا أبيات عمرو بن الأظنابة :

أبت لي همتي وأبي بلائي وأخذني الحمد بالثن الربيع
واقحمي على المكروه نفسي وضربي هامة البطل المشيع
وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي
لادفع عن مآثر صالحات وأحمي بعد عن عرض صحيح

وكان عبد الملك ، يقول لبنيه : عليكم بطالب الأدب فأنكم إن اجتمعتم إليه كان لكم مالا ، وإن استغنيتم عنه كان لكم جمالا . وقال المؤدب ولده : إذا رويتهم شعراً فلا تروهم إلا مثل قول العجير السلولي :

يبين الخمار حين يبين عني ولم تأنس إلى كلاب جاري
وتظعن جارتني من جنب بيتي ولم تستر بستر من جداري
وتأمن أن أطالع حين آني عليها وهي واضعة الخمار

كذلك هدى آباي قديماً . توارثه النجسار عن النجسار
وجلس ذات مرة في عدة من أهل بيته وولده فقال : ليقل كل منكم أحسن
شعر سمعه ، فذكروا لأمرى القيس وطرفة والأعشى وأكثروا ، فقال : أشعر
من هؤلاء والله معن بن أوس حيث يقول :

وذي رحم قلت أظفار ضفته	بحامي عنه وهو ليس له حلم
إذا سمعته وصل القرابة سامي	قطيعتها تلك السفاهة والظالم
وأسعى لكي أبني ويهدم صالحى	وليس الذى يبنى كمن شأنه الهدم
يحاول رغى لا يحاول غيره	وكالموت عندي أن يسجل به رغم (١)
فمازات في ليني له وأهطاني	عليه كما تمنى على الولد الأم
لاستل منه الضغن حتى سالته	وقد كان ذا ضغن يضيق به الحلم

- ٦ -

وينبغي ألا تغفل من مظاهر العناية بالخلفاء والأمراء بالأدب واللغة ، مظهراً
كان له شأنه وخطره في إنهاض الأدب وإبعاده ، ذلك هو مجالس الخلفاء ،
وما كانت تحفل به من إثارة ألوان السبق ، وتنبؤ المنافسة بين الشعراء ، ومن
تمييز وترجيح بين شعر وشعر ، ومن كثرة استحضات الرواة على الراوية .
وكان مجلس عبد الملك بن مروان على الأخص أعمر هذه المجالس وأكثرها
ذيوها وشهرة .

وبعد : فإن من يتتبع هذه العناية الفائقة يجد أنها عادت على الأدب بالنفع
الجزيل ، والخير العميم . إذ حفظت تراثه ، وصانت قديمه ، وعادت على جديده
بالصقل والتجويد والتعذيب .

أشهر المجامع الأدبية وأثرها

عصر بني أمية يعد من أزهى عصور الأدب وأنضرها ، راجت فيه سوقه ، ونفقت بضاعته ، وازدادت العناية به ، واشتد الإقبال عليه ، وأصبح لصاحبه مكانة ملحوظة ، ومنزلة مرموقة . فالشاعر يجالس الخليفة ويناديه ويحظى بعطاياهم وينعم بصلاته . والراوي الذي يختزن في ذاكرته أوابد الشعر ، ويحتقب في نفسه روائع القصيد وغرائبه ، يطلبه الخلفاء دائما لتأديب أولادهم ، وتثقيف أبنائهم ، أو يسألوه عما غاب عنهم عليه ، أو خفي عليهم قائله .

لهذا تعلق الناس بالأدب فطلبوه ، وعظمت رغبتهم فيه فساروا في موكبه ، وغشوا مجامعه ، ولازموا مجالسه . ولو كان المجال يتسع أمامنا لعرض آثار هذه المجامع في تفصيل ، وإبراز صور كثيرة مما حفلت به من شعر ودرس ورواية ، لرأينا المدهج المطرب ، ولكننا نكتفي بصورة موجزة غابرة لأن المقام يقتضي لنا الإيجاز ، والاكتفاء بالصورة المجملية عن الأسهاب والتفصيل .

كان الأدب مشرق الصفحة ، نابض الحياة ، تواتيه القوة ، ويلزمه الإبداع والإمتاع ، في يثرب وفي مكة وفي البصرة والكوفة ودمشق . فهذه كانت الحواضر التي تحيا فيها العقول حرة طليقة ، وتجيش القلوب بالمعاني التي تثير الشعر ، وتهمج شياطينه ، وتبعث أفانينه .

أما مكة فهي من قديم مثابة الشعراء وكعابتهم ، لما تميزت به من قداسة تجعلها مهبط القصاد ، وكعبة الرواد ، ومقصد الحجيج ، وكانت في عهد الأمويين زاخرة

بألوان النشاط الفكرى وفنون الحياة اللامية . يغنى في المضمون ويقول الشعراء
في حرية وسعة ، دون أن يقيموا وزنا لنقد ناقد ، أو لوم لائم .

ولقد روى أن ابن عباس كان بالمسجد الحرام ، وعنده نافع بن الأزرق
وناس من الخوارج يسألونه ، إذ أقبل عمر بن أبي ربيعة في ثوبين مصبغين
موردين ، حتى دخل مجلس ، فأقبل عليه ابن عباس فقال : أنشدنا ، فأنشده :

أمن آل نعم أنت غاد فببكر غداة غمد أم رانح فمبهر
حتى أتى على آخرها فأقبل عليه نافع ، فقال له يا ابن عباس : إنما نضرب إليك
أكباد الأبل ، نسألك عن الحرام والحلال ، فتناقل عنا ويأتيك غلام مترف من
قريش فينشدك :

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت (فيخزي) وأما بالعشى (فيخسر)
فقال ليس هكذا . قال فكيف قال ؟ قال :

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشى فينحصر
فقال نافع : ما أراك إلا قد حفظت البيت ، قال : أجل ، بل إن شئت أن
أنشدك القصيدة فعلت ، قال : فاني أشاء ، فأنشده القصيدة .

فهذه صورة تمثل المجتمع الأدبي في مكة ، وتدل في وضوح على أنه كان عامراً
بما يتناشده الشعراء في حرية سابغة ، وانطلاق وافر .

وأما المدينة . فكانت لها شهرتها الأدبية ، وذوقها الحساس ، ونقدها اللامح ،
من لدن الجاهلية . حتى كان النابغة يقول : ودخلت المدينة وفي شعري عمدة
وخرجت منها وأنا أشعر الناس ، وجاء الإسلام وهاجر إليها الرسول صلوات
الله عليه ، وكان له شعراء يناخون عن دعوته ، ويذودون عن رسالته ، وعلى رأسهم
حسان بن ثابت .

ويروى ابن عبد ربه عن أنس بن مالك أنه قال قدم علينا رسول الله (ص) المدينة ، وما في الأنهار يدت إلا وهو يقول الشعر . قيل له : وأنت يا أبا حمزة ؟ قال : وأنا . وابن سلام الجعفي حين يتحدث عن شعراء القرى العربية (مكة والمدينة والطائف واليمامة والبحرين) يقول : أشعر هذه القرى المدينة .

وكان حسان بن ثابت ينشد الشعر في هجاء قريش خصوم الرسول (ص) وهو يقول له : قل وروح القدس منك ، والله لشعرك عليهم أهد من وقع الحسام في غبش الظلام . ويروى أن عمر مر ذات يوم بحسان ، وهو ينشد شعره في مسجد الرسول (ص) فقال له : أرغاه كرغاه البكر ؟ فقال حسان : دعني من هذا يا عمر ، فوالله لقد كنت أنشد في هذا المكان من هو خير منك فلا يغير علي شيئا .

وتتابعت الأحداث على المسلمين وقامت دولة الأمويين ، فكانت المدينة تحمل دائما لواء المعارضة للحاكمين . وعاد شعراؤها إلى ما كانوا عليه أيام الجاهلية من هجاء لاذع ، وتنازع وتقاذف ، حتى كان عبد الرحمن بن حسان يهجو معاوية هجاء قبيحا حين استلحق زيادا ، واستفحل الشرب بينه وبين عبد الرحمن بن الحكم في المدينة ، فتهاجيا وتفاحشا .

وكان للشعراء فيها مجالس ، يتناشدون فيها الشعر وينقدونه ، ويستعرضون منه ما يهيجون من رديته ويستحسنون من جميده . يروى أن عمر بن أبي ربيعة قدم المدينة ، فاجتمع به الأحرص ونصيب وكثير ، فتحدثوا مليا وأفاضوا في ذكر الشعراء ، فأقبل كثير على عمر ، فقال له : إنك أشاعر لولا أنك تشبب بالمرأة ثم تدعها وتشبب بنفسك ، أخبرني يا هذا عن قولك :

ثم استطرت تشدد في أثرى تسأل أهل الطواف عن عمر^(١)
أراك لو وصفت بهذا مرة أهلك ألم تكن قد قبيحت وأبأت وقلت الهجر

إنما توصف الحرة بالحياة والآباء والبخل والامتناع ، أقلت كما قال الأحوص :

أدور ولولا أن أرى أم جعفر بأبياتكم مادرت حيث أدور
وما كنت زوارا ولكن ذا الهوى وإن لم يزر لابد أن سيزور
لقد منعت معروفها أم جعفر وإني إلى معروفها أفقر

فانكسرت نخوة عمر ودخلت الأحوص الخيلاء . فأقبل كثير على الأحوص
وقال له : لقد أبطل آخرك أولك ، أخبرني عن قولك :

فان تصلى أصلك وإن تبني بهجر بعد وصلك لا أبالي
أما والله لو كنت حرا لبأيت ولو كسر أنفك . أقلت كما قال نصيب :
بزينب ألم قبل أن يرحل الركب وقل إن تملينا فما ملك القلب
فانكسر الأحوص ودخلت نصيبا رهوة ، فلما رأى أن الكبرياء قد دخلته
التفت كثير إليه وقال : وأنت يا بن السوداء أخبرني عن قولك :

أهيم بدعد ما حبيت فان أمت فوا كبدي من ذاهيم بها بعدى (١)
أهلك وبحك من يهيم بها بعدك ؟ فلما أمسك كثير أقبل عليه عمر ، فقال له :
قد أنصتنا لك فاسمع ، أخبرني عن تخبرك لنفسك وتخبرك لمن تحب حيث تقول :

ألا ليتنا ياعر من غير ريمة بعيران نرعى في الخلاء ونعزب (٢)
كلانا به عر فمن يرنا يقل على حسننا جرباء تعدى وأجرب (٣)
إذا ما وردنا منهلأ صاح أهله علينا فما ننفعك نرعى ونضرب
وددت وبیت الله أنك بكرة هجان ، وأنى مصعب ، ثم نهرب (٤)

(١) أنشد البيت في مجلس عبد الملك ، فنقده وقال . الجهد أن يقول :

أهيم بدعد ما حبيت فان أمت فلا صلحت دعد لذي خلة بعدى

(٢) نعزب : نبعد في المرعى (٣) العر بالضم والفتح : الجرب

(٤) البكرة : الناقة الغنية . ناقة هجان : بيضاء اللون كريمة . المصعب : الفحل الذي يترك فلا يركب .

نكون بهيوى ذى غنى فيضيئنا فلا هو برعانا ولا نحن نطلب
فقد تنبت لها ولنفسك الرق والجرب والرمى والطرد والمسوخ ، فأى مكروه
لم تتمنى لها ولنفسك ؟

وهكذا كانت المدينة تعج بالشعراء الذين يقولون فلا يزالون من سطوة حاكم
ولا يرهبون قوة ظالم ، وبالنقاد الذين يتقدمون فيحسنون .. ومن هنا كانت عينا
ثرة بالشعر ، ومنبعها فياضا بالأدب ، لا يغيض مأوه ، ولا يحول رواؤه .



وكانت البصرة مصدر انتعاش الأدب ورقية ، وتهذيب حواشيه ، وكان
سوقها (المربد) ميدانا من أهم ميادين المنافسة والسبق بين الشعراء ؛ فكل شاعر يعد
شعره ، ويجود فصيدته ، ويخرج إلى المربد ، ومعه روايته والمتحصبون له ، يناضلون
عنه ، وبهميئون الجوى الذى ينشد فيه . ولنحول الشعراء حلقمات خاصة ينشدون فيها
أشعارهم ، ويفند عليهم أنصارهم ، وتذاع منها قصائدهم ، بما تحمل من مفاخرة
بالأحساب والأناسيب ، وقذف للمخصوم ، ومهاجاة للأعداء . ويقف الآخرون
لارد عليها ومناقضتها .

يروى أن جريرا والفرزدق اجتمعا فى المربد ، فتنافرا وتهاجيا ، وحفهما
العجاج والأخطل وكمعب بن جعيل . وكان كل من جرير والفرزدق لباس
لباسا خاصا ، ويخرج إلى المربد ويقول قصائده فى الفخر والمجاء ، والرواة
يحملون إلى هكليمهما ما قاله الآخر فبرد عليه .

قال أبو عبيدة : وقف جرير بالمربد وقد لبس درعا وسلاحا تاما ، وركب
فرسا أحاره إياه أبو جهضم عباد بن حصين ، فباغ ذلك الفرزدق . فلبس ثياب
وشى وسوارا ، وقام فى مقبرة بنى حصين ينشد بجرير ، والناس يسعون فيما بينهما
بأشعارهما ، فلما باغ الفرزدق لباس جرير السلاح والدرع قال :

عجبت لراعى الضأن فى حطمية وفى الدرع عبد قد أصيبت مقالته (١)

ولما بلغ جريرا أن الفرزدق في ثياب وشى قال :
 لبدت سلاحى و الفرزدق لعبة عليها وشاحا كرشج وجالاجله^(١)
 ومازالا كذلك يتهاجيان ، ويقولان القصائد الطويلة الكثيرة ، حتى مضج
 والى البصرة فهدم منازلها بالمربد ، فقال جرير :
 فما في كتاب الله تهديم دارنا بتهايم ماخور خبيث مداخله
 وبجانب هؤلاء الشعراء المتهاجين المتفاخرين طائفة أخرى من الرجاز ،
 يقفون في المربد فينشدون رجزهم ، كالعجاج ورؤية ، وأن النجم . وهكذا كان
 المربد مدرسة جامعة : تهتاج في أفئدتها شياطين الشعر ، ويتصاول شؤله ، وتصطرع
 آساد القريض .

— ٤ —

وكانت الكوفة تسمى بالرواية ، وتهتم بالجمع وتتبع ما قال الشعراء . ويقال إن
 السبب في هذا الاهتمام ، أن المختار بن عبيد الله ، عثر في أثناء حروبه بالعراق على
 أشعار مدفونة تحت القصر الأبيض ، فاستخرجها فكانت في يد الكوفيين ،
 يتنقلون بها على البصريين . ويقال إن الذي دفنها النعمان بن المنذر ملك الحيرة .
 وكان بين البصرة والكوفة منافسة شديدة في العلم : ولكن شهرة البصرة كانت
 باللغة وعلومها من نحو وغيره ، وذلك لتبحرها في العمران ، وقربها من البادية التي
 عرف أهلها بالفصاحة وصدق الهجة .

أما الكوفة فقد ذهبت شهرتها بالشعر وراويته ونقده .
 وتمتاز مجامع العراق على وجه العموم بالتبريز في علوم اللغة لشدة اعتمادهم على
 التحصيل والدرسي ، وحاجتهم إليها لدفع فساد المملكات .

(١) الكرشج : ما يتخذ من الدمي مثل الممر يلعب عليه وهو لفظ دخيل لا أصل له في العربية

على أن أهم مجالس الأدب وأكثرها إثارة افنونه وأعودها عليه بالتهذيب والصقل والإتقان والجودة . هي مجالس الخلفاء في دهشق مقر الخلافة الأموية ما كانوا يشيرون من مناظرات ، ويهيجون من نقد ، ويفتخون من أبواب سبق بين الشعراء .

كان لها وية وواع خاص بالشعر ومهاجاة الشعراء ، وكانت لعبد الملك مجالسه التي تشد فيها الأئمة من قديم وحديث وينتقد فيها الشعراء فلا يستثنى منهم أحد وقد مر بنا فيما سبق من بحوث ، وسيمر بنا فيما سنتناوله من دراسات ، أمثلة من آثار هذه المجالس ، وخاصة مجالس عبد الملك .

وكل هذه المجالس والمجالس الأدبية ، كان لها أروع الأثر ، في نضج الأدب واستواء صفحته ، وإشراق ديباجته ، ورواج سوقه ، وإحياء تراثه .

النثر في العصر الأموي

تهباً للنثر الأدبي في هذا العصر من العوامل المؤثرة ، والفواهر المخصصة ،
ما أنار صفحته ، وأبهج روعة ، وزين ديباجته .

ذلك أن العرب قد استقروا بعد اضطراب ، واجتمعوا بعد تفرق ، وتحضروا
بعد بدو ، واجتمع لهم من سلطان الملك ، وسمات الحضارة ، وثقافة الفكر ،
وتنظيم الحياة ، ما جعلهم يشعرون بحاجتهم إلى كلام مهذب ، وأسلوب رشيق ،
وفكرة مرتبة ، ومعنى تمتلك به النفوس ، وتجذب الأفتدة .

ويمكن أن نحمل الأسباب التي جعلت نثر هذا العهد قوى العبارة جزل
الأسلوب ، شديد الأسر ، ضخيم المظهر ، لا تخونه روعة الأداء ، ولا تتخلف عنه
نضارة البلاغة ، فيما يأتي :

١ - قامت دولة بني أمية بحمد السنان ، وقوة البيان ، وكما كان السيف من
أسلحتهم في توطيد الملك ، واستلاب الحكم ، والاستيلاء على شئون المسلمين ،
كان البيان القوي يحاول أن يخادع الناس ، وأن ينتزع من صدورهم ما يؤمنون
به ، من أحقية آل البيت ، وأن يجذبهم إلى سياسة الأمويين ، ويخضعهم بالقول
المعسول واللفظ الخلاب لسلطانهم المستحدث . وهذا أفاد النثر تهديبا وصقلا ،
وعاد عليه بكثير من الجودة وحسن البناء ، وصفاء الروق

٢ - استفاد القوم من بلاغة القرآن ، وروعة بيانه ، وسمو أسلوبه ، ومن
أحاديث رسول الله (ص) في تهذيب منطقهم ، وتطور أساليبهم ، أكثر مما
استفاد أسلافهم . ذلك أن هؤلاء الأسلاف شغلوا بالغزو والجهاد ومدافعة
الأحداث الملمة ، ومقارعة الخطوب المدممة ، عن حفظ القرآن وترديده
واستظهار الأحاديث النبوية وترتيلها ، فلم يكن أحد منهم يجتهد من فراغ وقته ،
واتساع الفرصة أمامه ، ما يمكنه من حفظ القرآن ، بل كان قصارى ما يستطيعه أن

يحفظ آيات يؤدى بها صلاته ، ويقوم بها عبادته ؛ حتى كان أنس بن مالك يقول : « كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران حمد في أميينا » .

وإذا صح ما روى من أن ابن عمر مكث ثمانى سنوات يحفظ البقرة ، فلا يمكننا أن نرد ذلك إلا إلى الأحداث المطيفة ، والشواغل الصارفة ، من تمكين للدين ، ونشر لدوائه ، ومجاهدة لأعدائه .

أما هؤلاء الأمويون فقد قلت لديهم الصوارف ولم تعد تشغلهم الحروب ، فانصرفوا بكل ما فيهم من رغبة مستحرة ، وميول مشبوبة منهومة ، إلى كتاب الله يستظفرون آياته ، ويفهمون حكمه وعظائمه ، وينصتون إلى ما فيه من سحر البلاغة وروعة البيان ، وسمو التعبير ، وجمال التصوير ، وماذا ينفعهم من ذلك وقد يسر لهم ذكره ، وهبئت لهم أسباب الحصول عليه ، ثم رأوا أعلام الصحابة يتصدرون لتعليم المسلمين ، وشرح ما غاب عنهم من معاني الكتاب ، والأفاضة في بيان ما يحمله إليهم من كريم الآداب ، وجميل الميزات . فابن عباس يجلس لذلك بمكة ، تضرب إليه أكباد الأبل ، وتقطع له الصحارى والقفاس . وزيد بن ثابت بالمدينة يشرح للناس من حديث الوحى ، ويبصرهم بأحكامه ، ويميز لهم من سهل الهداية ، ما يرغبهم في العلم ، ويدعوهم إلى التفقه في الدين ، والانتهاز من مناهل الشريعة . وهكذا .

وأخذ الناس يعنون عناية خاصة بأحاديث رسول الله (صلى) وهى من البلاغة فى الذروة والسنام . فجعلوا يتلففونها ، ويصغون معجبين إلى لحن القوة ينساب فى كلماتها ، وإلى إشراق البيان ونصاعته وسماحته ، ينضرب مبانها .

رددوا هذه الأحاديث ، واستدلوا بها فى كل ما يعرض لهم من شأن ، أو يقع لهم من مشكلات ؛ وبدأوا بدرونها ، ويجمعون ما تفرق منها فى صدور الرواة ورؤوس الثقات ، حتى تم لهم جمعه فى عهد عمر بن عبد العزيز . ومن هنا طبع نثرهم بطابع القوة التى شاموا بروقها ، واستنشقوا عبقرها ، من كلام رب العالمين . وآثار أفصح المرسلين .

٣ - وقد استجود الأمة من مظاهر الملك ، وانفسح لديها من آفاق الحياة ، وتهيأ لها من عوامل النمو والتطور ، ما يدعو إلى تهذيب اللغة ورفق الأساليب .

وإذا كانت بعض هذه المظاهر مما يمكن أن يشغل الناس عن دينهم ويعرفهم بعض الشيء عما كانوا فيه من توغل في العبادة . فقد رجس الخلفاء والولاة أنه لا بد من تذكيرهم بخالقهم ، وتهذيبهم إلى الطاعة ، وإثارة مشاعر الخوف والتقوى التي قد تنميها زخارف الدنيا ، ويغفل عنها ما تراحم لديهم من مفاتن الحياة .

ولهذا رتب معاوية الوعظ في المساجد ، يذكر الناس حين تغايهم غفوة ، ويدعونهم إلى الصراط المستقيم حين تميل بهم هفوة . ويقصون عليهم على نظام المكتاب الكريم ما حل بغيرهم من الأمم حين جانبوا الحق ، وتكبروا الهداية . وكان من أشهر هؤلاء الوعاظ الحسن البصري ومحمد بن سيرين .

وكان هؤلاء يعتمدون إلى الإقاضة في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تبصر الناس بما يسعدهم في دنياهم وينجيهم في آخرهم . ولا ينكر أحد ما لهذا من أثر بالغ في تهذيب اللفظ وروعة المعنى ، ودقة الفكرة ، وقوتها . فان العظة دائما لا تقع من النفس موقعا مقبولا ، ولا تأخذ مكانها من القلب في يسر وسماحة ، إلا حين تلبس ثوبا براقا من اللفظ الجليل والأسلوب الموثق والفكر المرتب

٤ - رأى خلفاء بني أمية أن الناس قد بداخلهم الحنق على هذا السلطان الذي اغتصبوه ، ويتردد في نفوسهم التمرد من أجل هذا الملك الذي سلبوه ، فارادوا أن يصرفوهم عن مثل هذه الأفكار برواية ما ترك العرب من شعر ونثر ، بعد أن كادت الحروب والغزوات والإنصراف إلى الدين الجديد تقطع ما بينهم وبين ذلك من الصلات . وقد بالغوا في الإلتهاف إلى هذه الناحية يستخرجون كنوزها ، ويظهرون نفائسها ، ويحيون ما كاد أن يندرس من أعلامها ، وأخذوا يشجعون الرواة ، ويغدقون عليهم سني الجوائز ، وعظيم الهبات ، ويوسعون لهم في مجالسهم ويؤثرونهم بعظمتهم . والناس يستمعون إلى هذه الأشعار فتستولي على نفوسهم

لا غنى عنها ، وبأخذ بالبايهم رونقها ، وينطبع في أذهانهم ما تتميز به من الجزالة وشدة
الأسر ، وضخامة اللفظ وهذا سر ما نلجحه في أدب هذا العصر من قوة وفخولة ،
صالة الملكة ، واقتدار بالغ على الأداء والتصوير .

ه — وكان لابد أن يكون لاختلاط العرب بغيرهم وامتزاج الثقافات واتصال
المعارف أثر قوى في تهذيب ألفاظهم وترتيب أفكارهم وصقل مداركهم .

ومن هنا رأينا نشرا لا يعتمد على الفكرة الطارئة ، ولا اللوحة العارضة ، و
لخاطر المابر ، إنما يعتمد على تسلسل الأفكار وقوة الحججة واتزان المنطق .

هذه هي العوامل أو بعض العوامل التي أثرت في النشر الأدبي ، وجعلته مشر
لصفحة ، قري الديباجة ، لامع الروق . ولما كان مظهره إذ ذاك ينحصر
لخطابة والكتابة ، آثرنا أن نتكلم على كل نوع منه على حدة :

الخطابة الاموية

عوامل نهوضها :

كل الظواهر السياسية والاجتماعية التي استجذت في هذا العصر ساعدت على رقي الخطابة وازدهارها ، وارتفاع شأنها ، وتنوع أغراضها ، ونضج أساليبها ، واستواء طرائقها :

١ - فالامة إذ ذاك تشعبت إلى أحزاب وطوائف ، وفرق وجماعات ، تتقارع بالكلام ، وتتصاول بالحجة ، وتترشق بالتهم ، وتتدافع بالرأى . ففهم الامويون والزيريون والشيعة والخوارج ولكل جماعة نشاط دائم ، وحركة مستمرة ، وقول تردده البعثات ، وتتناقله المجامع ، وخطباء تحصى أنوفهم ، وتهيج نفوسهم ، لدفع الرأى بالرأى ، ومقارعة الحجة بالحجة .

أليست هذه المقامات مما يمد الخطابة بالمدعين القياض ، ويمود عليها بالتهذيب والصقل ، ويخلع عليها شبابا وقوة ، فوق أنها من أقوى الدواعى إليها ، لتأييد مذهب كل فريق ، والدفاع عن رأى كل جماعة ، والرد على ما يدعيه الخصوم من كل حزب ؟ .

٢ - ولقد كان لما فطروا عليه من قوة الملكات ، واستكمال أداة البيان ، وهم عرب مفطورون على الفصاحة ، مطبوعون على الخطابة ، لاتهموزهم الجرأة على اقتحام أشد مواقفها ، كان لذلك أثره في احتفاظ الخطابة بما كان لها من قوة ومكانة قبل ذلك .

ولقد نضجت العقول في هذا العصر ، وتهذبت الملكات ، وأسست سبل الكلام ، وانقادت أزمة البيان ، بما تهيأ لهم من ثقافة أدبية أمدتهم بها الكتاب والسنة ، وأتاحها لهم الفتيح والاختلاط ، فأصبح الخطيب يستطيع أن يجرد من

زاخر المقاتي ، ومتنوع الأغراض ، ما ينطلق به لسانه ، ويفيض به بيانه ، دون أن يخشى بهرا ، أو يخاف حصرا وانقطاعا .

٣ - وقد كان للحرية السابعة ، التي أبحث أهم في هذا العصر ، أثرها البالغ في نهوض الخطابة وتطورها . فالخطيب يستطيع أن يعبر عما يتردد في نفسه ، وينطوي عليه فؤاده ، من رأى أو مذهب ، دون أن يخشى ظلم وال أو اضطهاد حاكم ، أو صولة ذي سلطان . وأساس هذه الحرية . ما استنته معاوية من تسامح وحلم وإغضاء ، إزام قصومه ، حتى كان يجابه أقبح المجاهبة ، فيخضى ويحلم . وبما يؤثر عنه في ذلك أن رجلا شهد أمامه شهادة لم ترق في نظره ، فقال له معاوية : كذبت ، فقال له : الكاذب والله متزمل في ثيابك !! فتبسم معاوية ولم يأخذه غضب عليه ، بل قال : هذا جزاء من عجل .

هذه هي الحرية التي تزدهر في ظلالها الخطابة ، ويصول فيها لحول البلغاء .

وإذا كان بعض الخلفاء قد ضاق صدره بهذه الحرية ، كما أثر عن عبد الملك أنه اضطر أن يقول وهو على المنبر لمن قال له : اتق الله : « من قال لى اتق الله بعد يومى هذا ضربت عنقه » . فانهم لم يستطيعوا حبس الألسنة ، أو تهديد الحرية ، إلى الطابع عليها العرب .

٤ - وكانت قوة العقيدة التي تتملك النفوس ، وتستقر في أعماق القلوب ؛ دافعة إلى أن يجهر صاحب رأى برأيه ، وبما عنده من فكرة ومذهب : ويستमित في سبيل إعلان فكرته ، مهما تهدده من يطش ، أو ناله من إيذاء . بل إن بعضهم كان يندفع في مواجهة ذي السلطان بما يسكره ، وإن جر عليه ذلك الخنف والهلاك يروى أنه لما نعى الحسين في الكوفة نادى واليها ابن زياد : إلى الصلاة الجماعة ، وصعد إلى المنبر ، وخطب فقال : « الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله ، ونصر أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وحزبه ، وقتل الكذاب ابن الكذاب الحسين بن علي وشيعته » ، فما أتم هذه الجملة حتى وثب له من بجانب المسجد شيخ ضرير هو عبد الله بن عفيف الأزدي الذي ذهب إلى عينيهِ يوم الجمل ، وذهبت عينه

الأخرى يوم صفين - وصاح بابن زياد قائلاً : يا بن مرجانة ! أنت قتل أبناء النبيين
وتقوم على المنبر مقام الصديقين ؟ إنما الكذاب أنت وأبوك ، والذي ولاك
وأبوه ، ، ولم يطلع عليه الصباح إلا وهو مصلوب .

فان ما مردوا عليه من الحرية ، وما ألفوه من التحرر والانطلاق ، وما
استمكن في قلوبهم من قوة العقيدة وصدق الإيمان ، دفع هذا العربي إلى أن يثور
على الوالى ، وهو فى نشوة نصره ، وغرور ظفره .

وكان للخوارج فى هذا المجال مواطن مأثورة ، ومواقب مشهورة ، تدل على
ماكان لقوة العقيدة من أثر فيما يقولون .

• ولقد شعر الناس إذ ذاك بشدة الحاجة إلى الخطابة ، فأخذوا يربون
أبناءهم على بلاغة الكلام ، ويمردونهم مواقف الخطابة ، ويحاولون طبع ألسنتهم
على فصاحة القول ، وتجلية الرأى ، وسوق الحجج ؛ حتى يكونوا عند الحاجة ،
السنة فاطفة ، وأسنة مدافعة .

كل هذه العوامل ، قد هيأت للخطابة من نباهة الشأن ، وعلو القدر ، وسمو
المنزلة ، ما جعلها تؤدي مهمتها ، وتقوم برسالتها .

موضوعاتها :

ولقد زادت أغراض الخطابة ، بما استجد فى شئون الدين والسياسة والاجتماع
فاستعملت فى الدعاية السياسية عند الفرق والأحزاب ، وفى الجدل الدينى عند
الخوارج والشيعة وغيرهم ، وفى المناقضات والمفاخرات والمحاورات التى كانت
تقوم على العصبية ، وكانت أداة الخلفاء والولاة فى الوعد الوعيد والانذار ،
هذا إلى جانب أغراضها القديمة : من وصية ونصيحة وتحريض على القتال
وتهمنة بنصر ؛ كما ظلت مظهراً دينياً يجلى فى الجمعة والعيد ومواسم الحج .

خصائص الخطابة الأموية :

نزعتان قويتان كانتا قسودان في هذا العصر :

١ - النزعة السياسية : وتمتلك طوائف الحكام ، وتستولي على نفوس أرباب السلطان . فقد وقر في أنفسهم أنهم أحق بسياسة هذه الأمة ، وأولى بحكمها . ومن هنا كانت تصدر في خطاباتهم النزعة السياسية ، ويغلب عليها التحرر من الرسوم الدينية ، فيكثر فيها الاستشهاد بالشعر ، ويقل الاقتباس من القرآن الكريم ، وربما غلبا بعضهم ، فترك الحمد في أول الخطبة ، كما صنع زياد في خطبته البتراء ، وهذا النوع من الخطب السياسية كان يغلب عليه ضخامة اللفظ ، وقوة الأسر ، والنفخ في الخطاب ، والمبالغة في الوعيد والتهديد ، والأسراف في السب والشتم ، حتى لقد امتن معاوية سنة سيئة ، هي سب (علي) على المنابر في خطب الجمعة ، وظلت تلك السنة مرعبة ، حتى أبطلها الخليفة الورع : عمر بن عبد العزيز ، وجعل مكانها قوله تعالى : « إن الله يأمر بالهonesty والاحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » يعظكم لعلمكم تذكرون .

٢ - النزعة الدينية : وتتجلى واضحة في خطب الجماعات التي تتألف من الخلفاء ، وترى أن بني أمية لا يصلحون لقيادة الأمة ، ولا لحكم المسلمين . وتبين خطابة هؤلاء بالتزام الحمد في أولها ، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، وكثرة الاستشهاد بآيات الكتاب الكريم والاقتباس منه ، حتى إن بعضها كان كله اقتباسا منه كما خطب مصعب بن الزبير ، فلم يزد على قوله : « بسم الله الرحمن الرحيم ، طسم تلك آيات الكتاب المبين . فتلو عليكم من نبي موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ، إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ويستعبي نسائهم ، إنه كان من المفسدين » وأشار بيده نحو الشام - ونريد أن نمنن على

الذين استضعفوا في الأرض ونجملهم أئمة ونجملهم الوارثين - وأشار بيده نحو
الحجاز - ونمكن لهم في الأرض، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا
يحذرون - وأشار بيده نحو العراق -

كما يشيع في هذه الخطب التحذير من الدنيا وغرورها ، والمخويف من الآخرة
وأهلها ، ونحو ذلك من ألوان التأثير الديني الذي تتطامن له النفوس ، وتختبئ
القلوب ، وترق المشاعر .

وهذه الخطب ذات النزعة الدينية ، هي في الواقع خطب سياسية ، تهدف إلى
تغيير الأوضاع ، وقلب الأنظمة ، ونباوة الحاكمين . وإنما سميت بهذه السمة ،
لأنها تشجع بردة الدين ، وتصطبغ بصبغته ، للتأثير على النفوس ، والوصول إلى
الافئدة ، ولأنها صادرة من أناس لهم نزعات دينية قوية ، وممكنة من نفوسهم ، ولهم
رسالة خاصة يعملون على تحقيقها .

* * *

هذا وقد بقيت للخطابة عاداتها القديمة ، من قيام الخطيب على نشز من الأرض
يشرف منه على السامعين ؛ ولهذا اتخذت المنابر في بيوت الله ، ومن اعتمادهم على شيء
في أيديهم ، حتى كان عبد الملك بن مروان يقول : لو ألقيت الخيزرانة من يدي
لذهب شطر كلامي . ولقد أراد معاوية سحبان بن وائل على الخطابة ، فلم ينطق حتى
أتوه بمخصرة ؛ فحجمها بيده ، فلم تعجبه ، فأتوه بمخصرته من بيته ، فخطب بها .
وكان الخطيب يخطب قائما ، حتى جاء الوليد بن عبد الملك ، فخطب جالسا ،
واتبعه في ذلك من جاء بعده . وربما دفعه إلى ذلك تهيبه من مواقف الخطابة ، إذ
كان كثير اللحن ، ضعيف الملكة ، يخشى أن يطالع الناس بلحنه ، وعى لسانه ، حتى
إنه أناب عنه من يخطب الناس الجمعة . وكان من سنة الخلفاء أن يخطبوا الناس
بأنفسهم يوم الجمعة .

وظل للخطابة كذلك ما كانوا يشترطونه في الخطيب من حسن السمات ، وجمال
المظهر ، ورباطة الجأش ، وثبات الجنان ، وجمهرة الصوت ، والرياسة في الجماعة ،
إلى غير ذلك من شروط الخطيب .

أشهر الخطباء :

وقد نبغ في الخطابة الكثير من البلغاء والفصحاء والمقاول المضامع .
فمن الأمويين : معاوية ، وعبد الملك ، وسليمان بن عبد الملك ، وعمر بن عبد العزيز ..
ومن ولانهم : زياد ، والحجاج ، وقتيبة بن مسلم ، وخالد بن عبد الله القسري ،
والمهلب بن أبي صفرة .

ومن العلويين : الحسين بن علي ، وحفيده زيد .
ومن الخوارج : عمران بن حطان ، وقطارى بن الفجاءة ، وأبو حمزة اليباضى .
وكان إلى جانب هؤلاء : عبد الله بن الزبير ، وأخوه مصعب .. ومن رؤساء
القبائل : مصعب بن صوحان ، وسحبان بن وائل .

نماذجها :

— ١ —

خطبة معاوية بالمدينة عام الجماعة :

قدم معاوية عام الجماعة (سنة ١٤ هـ) ، فلقاه رجال قریش فقالوا : الحمد لله الذى
أعز نصرک ؛ وأعلى كعبک ، فأرد عليهم حتى صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
« أما بعد ، فإني والله ما وليتها ^(١) بمحبة عليتها منكم ، ولا مسرة بولايتي ، ولكني
جالدكم بسبني هذا مجالدة ؛ ولقد رضت ^(٢) لكم نفسي على عمل ابن ^(٣) أبي قحافة ،
وأردتها على عمل عمر ، فنفرت من ذلك نفارا شديدا ، وأردتها على سنين ^(٤)
عثمان ، فابت على فسلكتها طريقا لي ولكم فيه منفعة : مؤاكلة حسنة ، ومشاربة

(١) أى الخلافة . (٢) من راض المهر : إذاذله .

(٣) هو أبو بكر الصديق . (٤) سنينة : مصغر سنة ، ولهمراد حكم عثمان .

جميلة ، فان لم تجدونى خيركم فاني خير لكم ولاية ، والله لا أحمل السيف على من لا سيف له . . وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفي به القائل بلسانه ، فقد جعلت ذلك له دبر أذني (١) ونحت قدمي ، وإن لم تجدونى أقوم بحقوقكم كله فاقبلوا مني بعضه ، فان أتاكم مني خير فاقبلوه ، فان السيل إذا جاد أثرى ، وإذا قل أغنى ، وإياكم والفتنة ، فانها تفسد المعيشة وتكدر النعمة .

- ٢ -

خطبة عبد الله بن الزبير لما بلغه قتل أخيه مصعب :

لما قتل عبد الملك بن مروان مصعب بن الزبير (سنة ٧١ هـ) وانتهى خبر مقتله إلى عبد الله بن الزبير ، أضرب عن ذكره أياما . حتى يتحدث به إمام مكة في الطريق . ثم صعد المنبر فجلس عليه مليا لا يتكلم ، والسكابة على وجهه ، وجبينه يرشح عرقا . فقال رجل من قريش لرجل إلى جانبه : والله لا يتكلم ؟ أترام يهاب المنطق ؟ فوالله إنه للبيب الخطباء ، قال : لعله يريد أن يذكر مقتل مصعب سيد العرب ، فيشتد ذلك عليه ، وغير ملوم . ثم تكلم فقال :

والحمد لله الذي له الخلق والأمر ، وملك الدنيا والآخرة ، يؤتي الملك من يشاء ، ويمن من يشاء ، ويذل من يشاء .

أما بعد : فانه لم يعز الله من كان الباطل معه ، وإن كان معه الانام طراً (٢) . ولم يذل من كان الحق معه ، وإن كان مفردا ضعيفا . . ألا وإنه قد أتانا خبر من العراق ، فساءنا وسرنا : أتانا أن مصعبا قتل رحمة الله عليه ومغفرته ، فأما الذي أحزننا من ذلك ، فان لفراق الحميم لذة ولو عة يجدها حميمه عند المصيبة ، ثم يرفعوى من بعد ذو الرأي والدين إلى جميل الصبر ، وكريم العزاء . وأما الذي

(١) جعل كلامك دبر أذنه : لم يصغ اليه ولم يبرج عليه .

(٢) طرا : جميعا .

سرنا منه ، فانا قد علمنا أن قتله شهادة له ، وأنه عز وجل جاعل لنا وله في ذلك الخيرة إن شاء الله تعالى .

أسلمه الطغام^(١) ، الصم الأذان ، أهل العراق ، لإسلام النعم الخطمة^(٢) . وباعوه بأقل من الثمن الذي كانوا يأخذون منه . فان يقتل فقد قتل أبوه وعمه وأخوه^(٣) . وكانوا الخيار الصالحين .

إنا والله لاندوت حتف آنا فنا^(٤) ، ولكن قصصا^(٥) بالرماح ، وموتا تحت ظلال السيوف ، وليس كما يموت بنو مروان ، والله ما قتل منهم رجل في زحف

(١) الطغام : الأوغاد . (٢) خطم البعير بالخطام : جعله على أنفه ، والخطام ككمتاب : ما وضع في أنف البعير ليقناده به . (٣) بعد أن اعتزل الزبير بن العوام أصحاب الجمل ، انصرف إلى وادي السباع ، وقد تبعه عمرو بن جرموز فقتله في الصلاة . ويعنى بعلمه عبد الرحمن بن العوام بن خويلد ، وقد استشهد يوم اليرموك . وفي رواية : وابن عمه ، ويعنى به عبد الله بن عبد الرحمن بن العوام . وقد قتل يوم الدار . وأما أخوه فهو المنذر بن الزبير . وذلك أن جيش يزيد بعد أن أوقع باهل المدينة في وقعة الحرة ، سار إلى مكة لغزو عبد الله بن الزبير ، فقال لأخيه المنذر : مال هذا الأمر ولدفع هؤلاء القوم غيري وغيرك . وكان أخوه المنذر ممن شهد الحرة ثم لحق به فجرد اليهم أخاه في الناس : فقاتلهم ساعة قتالا شديدا : ثم إن رجلا من أهل الشام دعا المنذر إلى المبارزة ، فخرج إليه ، فضرب كل واحد منهما صاحبه ضربة خرسا حبه لها ميتا : وكان مقتله سنة ٦٤ هـ .

(٤) الحتف : الموت ، ويقال : مات حتف أنفه : أى على فراشه من غير قتل ولا ضرب ولا حرق ولا حرق ، وخص الأنف لأنه أراد أن روحه تخرج من أنفه بقتاب نفسه أو لأنهم كانوا يتخيلون أن المريض يخرج روحه من أنفه والجريح من جراحته . (٥) القمص : الموت السريع ، ومات قصصا : أصابته ضربة أو رمية فمات مكانه ، وفي رواية : إنا والله ما ندوت حبا كمية آل أبي العاص ، والحبيج كصبيب

في جماعية ولا إسلام قط ، إلا وإنما الدنيا عارية (١) من الملك الظاهر الذي لا يزول سلطانه ، ولا يبيد ملكه ، فان تقبل الدنيا على لم آخذها أخذ الأثر (٢) البطر ، وإن تدبر عنى لم أبك عليها بكاء الخرق الممين (٣) ، أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولكم . . . ثم نزل .

— ٢ —

خطبة عبد الملك بن مروان لما دخل الكوفة ، بعد قتل مهدي :
دخل عبد الملك بن مروان الكوفة ، بعد قتل مهدي بن الزبير ، فصعد المنبر ،
حمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
« أيها الناس : إن الحرب صعبة مرة ، وإن السلم أمن ومصرة ، وقد زبنتنا
الحرب وزبناها (٤) ، فحرقناها وألفناها ، فبين بنوها ، وهي أمنا .

= انتفاخ بطن البعير من أكل لحاء العرفج (كجعفر) وربما قتله ذلك ، يمرض
ببني مرزبان ، لكثرة أكلهم وإسرافهم في ملاذ الدنيا وأنهم يموتون بالتخمة .

(١) العارية وبخفف : الشيء المستعار (٢) الأثر : البطر

(٣) الخرق وصف من الخرق كسبب : وهو اللعش من خوف أو حياء ،
أو أن يبيت فاتها عينيه ينظر . والممين الحقيق . ويروى . « بكاء الخرق المهتر »
والخرق بفتح فكسر : من فسد عقله في الكبر ، والمهتر : من ذهب عقله من كبر أو
مرض أو حزن ، من الهتر بضم الهاء وقد أهتر بالبناء للفاعل فهو مهتر بضم الميم
وفتح التاء ، وقد قيل أهتر بالبناء للمجهول .

(٤) أي دفعنا ودفعناها ، والزبن : الدفع ومنه اشتقاق الزبانية جمع زبنة
أو زبني بكسر الزاي وسكون الباء ، لأنهم يدفعون أهل النار إلى النار ، ومنه أيضا
حرب زبون بفتح الزاي .

أيها الناس : فاستقيموا على سبيل الهدى ، ودعوا الأهواء المردية ، وتجنبوا فراق جماعات المسلمين ، ولا تكفرونا أعمال المهاجرين الأولين ، وأنتم لا تعملون أعمالهم ، ولا أظنكم تزدادون بعد الموعظة إلا شرا ، وإن تزداد بعد الإغذار إليكم والحنوة عليكم إلا عقوبة ، فمن شاء منكم أن يعود بعد مثلها فليعد ، فأنما مثلي ومثلكم كما قال قيس بن رفاعة الأنصاري :

من يصل ناري بلا ذنب ولا ترة	يصل بنسار كريم غير غدار ^(١)
أنا النذير لكم منى مجاهرة	كي لا ألام على نهى وإنذار
فان عصيتم مقالى اليوم فاعترفوا	أن سوف تلقون خزيا ظاهرا عارا
انرجعن أحاديثا ماعنة	لهوالمقيم ولهوالمدلج الساري ^(٢)
من كان في نفسه حوجاء يطلبها	عندى فاني له رهن باصهار ^(٣)
أقيم عوجته إن كان ذا عوج	كما يقوم قدح النبعة الباري ^(٤)
وصاحب الوتر ليس الدهر مدركه	عندى ، وإني لدرالك بأوتار

(١) الترة والوتر : الثار . (٢) أدلج : سار من أول الليل ؛ فان سار من آخره فقد أدلج بالتشديد ، والساري : السائر بالليل .

(٣) الحوجاء : الحاجة ، وقوله : باصهار أى لا أستتر عنه ولا أمتنع في إلا ما كن الحصينة ، من أصحرو القوم : برزوا إلى الصحراء .

(٤) العوج بفتح العين : في كل ما كان منتصبيا مثل الإنسان والعصا والعود وشبهه ، والعوج بالكسر : ما كان في بساط أو أرض أو معاش أو دين وقيل بالفتح مصدر ، وبالكسر اسم منه . والقدح : السهم قبل أن يراش وينهل وجمعه قداح . والنبعة واحدة النبع وهو شجر القسي والسهم .

خطبة زياد البتراء :

وقدم زياد ابن أبيه البصرة سنة ٤٥ هـ ، واليا معاوية بن أبي سفيان ، والفسق بها كثير فاش ظاهر ، فخطب خطبة بترأه لم يحمد الله فيها ، قال :

أما بعد : فإن الجاهالة الجهلاء^(١) ، والضلالة العمياء ، والغنى الموفى بأمله على النار ، ما فيه سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حلاؤكم^(٢) ، من الآثور العظيم ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأنكم لم تقرأ كتاب الله ، ولم تسمعوا ما أهد الله من الثواب المكرم لأهل طاعته ، والمذاب الآليم لأهل معصيته ، في الزمن السرمدي^(٣) الذي لا يزول

أتمكونون كن طرفت^(٤) عينيه الدنيا ، وسدت مسامحه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية . ولا تذكرن أنفسكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه : من ترككم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله . هذه المواخير^(٥) المنصوبة ؛ والضعيفة المسلوقة في النهار المبصر ، والعدد غير قليل . ألم يكن منكم نهاية^(٦) تمنع الخواة عن داج^(٧) الليل وغارة النهار ؟ قربتم القرابة . وباعدتم الدين ! تعذرون بغير العذر ، وتعضون على الخناس . كل امرئ منكم يذب عن سفيحه صنيع من لا يخاف عاقبة ، ولا يرجو معادا . إنا أنتم بالحللاء . ولقد اتبعتم

(١) هذا الوصف توكيد للمبالغة ، كقولهم ليلة ليلاء

(٢) الحللاء : العقلاء (٣) السرمدي : الدائم .

(٤) طرف بصره : أطبق أحد جفنيه على الآخر ، وطرفه عنه كضربه :

صرفه ورده . . . (٥) المواخير جمع ماخوذ : وهو بيت الريبة .

(٦) نهاية جمع ناه ، وغواة جمع غار . (٧) الداج : السير من أول الليل .

السفهاء ، فلم يزل بكم ما تروني من قيامكم دونهم ، حتى انتهكوا حرم^(١) الاسلام ، ثم أطرقوا وراءكم كنوسا^(٢) في مكانس الريب . حرام على الطعام والشراب ، حتى أسويها بالأرض هدماء وإحراقا .

إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما يصلح به أوله : لين في غير ضيف ، وشدة في غير عنف . وإني أقسم بالله لا أخذن الولي بالمولى^(٣) ، والمقيم بالظاهن ، والمقبل بالمدير ، والمطالع بالماضي ، والصحيح منكم في نفسه بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم أخاه ، فيقول : انج سعد فقد هلك سعيدا^(٤) ، أو تستقيم لي قناتكم . إن كذبة الأمير بلقاء^(٥) مشهورة . فإذا تعلقتم على بكذبة فقد حلت لكم معصيتي^(٦) فإذا سمعتموها مني فاغتمزوها^(٧) في ، واعلموا أن عندي أمثالها .

(١) الحرم جمع حرمة : وهي ما لا يحل انتهاكه ، روى الشعبي قال : لما خطب زياد خطبته البراء بالبصرة ونزل ، سمع تلك الليلة أصوات الناس يتحارسون ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : إن البلد مفتون ، وإن المرأة من أهل المهسر لتأخذها الفتيان الفساق ؛ فيقال لها : نادى ثلاثة أصوات ، فإن أجابك أحد ، وإلا فلا لوم علينا فيما نصنع !

(٢) كنوس جمع كانس : أي مستتر كجلوس جمع جالس ، وأصله من كنس الظبي كضرب : دخل في كئابه ، ككتاب ، وهو مستتره من الشجر ، ومكانس الريب : مكانها المستتره جمع مكانس كجلاس . (٣) الولي : السيد ، والمولى هنا : العبد . (٤) سعد وسعيد هما ابنا ضبة بن أد ، خرجا في طلب إبل لآبيهما فوجدها سعد فردها وقتل سعيد فكان ضبة إذا رأى سوادا تحت الليل قال سعد أم سعيد ؟

(٥) من البلق بالتحريك وهو ارتفاع التحجيل في الفرس إلى الفخذين والتحجيل : بياض في قوائم الفرس ، والفرس البلقاء مشهورة لتميزها عما سواها ببلقها . (٦) في تاريخ الطبري : قال الشعبي فوالله ما تعلقنا عليه بكذبة ولا وعدنا خيرا ولا شرا إلا أنفذه ، (٧) أي عدوها من عيوني ، واغتمزه طعن عليه .

من نقب منكم عليه فانا ضامن لما ذهب منه (١) . فإياي وداج الليل ، فاني لا أوتي بمدالج إلا سفكت دمه ، وقد أجملتكم في ذلك بمقدار ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع إليكم . وإياي ودعوى (٢) الجاهلية ، فاني لا أجود أهدا دعا بها إلا قطعت لسانه .

وقد أحدثتم أحداثا لم تكن ، وقد أحدثنا أمك ذنب عقوبة : فمن غرق قوما غرقناه ، ومن أحرق قوما أحرقناه ، ومن نقب بيتنا نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبرا دفناه حيا فيه . فكفروا عني أيديكم وألسنتكم ، أكفف عنكم يدي وألساني ، ولا تظهر من أحد منكم ريبة بخلاف (٣) ما عليه عامتكم ، إلا ضربت عنقه .

وقد كانت بيني وبين أقوام إحن (٤) ، فجاءت ذلك دبر (٥) أذني ، وتحت قدمي ، فمن كان منكم محسنا فليزدد إحسانا ، ومن كان منكم مسيئا فليزغ عن إسماعته . إني لو علمت أن أحداكم قد قتله السل من بغضي لم أكشف له قناعا ، ولم أهتك له سترا ، حتى يبدى لي صفحته (٦) ؛ فإذا فعل ذلك لم أناظره ، فاستأنفوا أموركم ،

- (١) في تاريخ الطبري : وكان زياد أول من شد أمر السلطان ؛ وأكده الملك معاوية ، والزم الناس الطاعة ، وتقدم في العقوبة وجرد السيف بالظنة وعاقب على الشبهة وخافه الناس في سلطانه خوفا شديدا حتى أمن الناس بعضهم بعضا حتى كان الشيء يسقط من الرجل أو من المرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه وتبيت المرأة فلا تغاق عاها بابها ، وكان يقول لو ضاع جبل بيني وبين خراسان علمت من أخذه . (٢) قوهم : بالغلان ، والغرض : مناصرة العصبية . (٣) أي تخالف ما اجتمع عليه عامة القوم . (٤) جمع إحنة : وهي الحقد والضغينة . (٥) أي خلف أذني ، وقد اقتبسها من كلام معاوية . (٦) أي حتى يجاهرني بالعداوة

وأعينوا على أنفسهم ، فرب مبيتش بقدمونا سيبر ، ومسرور بقدمونا سيبيتش .
 أيها الناس : إنا أصبحنا لكم ماسة ، وعنكم ذادة ^(١) : نسوسكم بسلطان
 الله الذي أعطانا ، ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا ^(٢) ، فلنا عليكم السمع والطاعة
 فيما أحببنا ، وإلحكم علينا العدل فيما ولينا ، فاستوجهوا عدلنا وفيئنا بمننا صحتكم لنا ،
 واعلموا أني مهما قصرت عنه فإن أقصر عن ثلاث : لست محجبا عن طالب حاجة
 منكم ولو أتاني طارقا بابل ، ولا حابسا عطاء ولا رزقا عن إبانة ^(٣) ، ولا
 مجرا لنا لكم بعثا .

فادعوا الله بالصالح لا تمتكم ، فانهم ساستكم المؤدبون لكم ، وكمفكم الذي
 إليه تأوون ؛ ومتى يصاحوا تصاحوا ، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم ، فيشتد لذلك
 غيظكم ، ويطول له حزنكم ، ولا تدركوا له حاجتكم ، مع أنه لو استجيب
 لكم فيهم لكان شرا لكم ... أسأل الله أن يعين كلا على كل ، وإذا رأيتموني أنفذ
 فيكم الأمر فأنفذوه على أذلاله ^(٤) ، وأيم الله إن لي فيكم لصرعى كثيرة ؛ فليحذر
 كل امرئ منكم أن يسكون من صرعاى .

فقام إليه عبد الله بن الأهثم فقال : و أشهد أيها الأمير لقد أوتيت الحكمة
 وفصل الخطاب ، فقال له : كذبت ، ذاك نبي الله داود صلوات الله عليه ، فقام
 الأحنف بن قيس فقال : إنما الثناء بعد البلاء ، والحمد بعد العطاء ، وإنا إن نثنى

-
- (١) جمع ذائر أى مدافع (٢) خولنا : مامكنا ، والفيء : ما كان
 شمساً فينسخه الظل ، والخراج - أى ندفع عنكم بطل الله ونعمته التى وهبنا ،
 أو ندفع عنكم بما صار فى أيدينا من أموال الخراج
 (٣) أى وقته وموعده (٤) جهر الجند : حبسهم فى أرض العدو ولم يرجعهم
 (٥) أى على وجوهه وطرقه جمع ذل بالكسر ، وذل الطريق محجته ، وأمور
 الله بجارية على أذلالها : أى مجاريها

حتى نبتلى ، فقال له زياد : صدقت . فقال أبو بلال مرداس ^(١) بن أدية وهو
يهوس ويقول : أنبأنا الله بغير ما قلت ، قال الله تعالى : « وإبراهيم الذي وفى ، ألا
تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » . وأنت تزعم أنك
تأخذ البرىء بالسقيم ، والمطيع بالعاصى ، والمقبل بالمدبر ، فسمعها زياد فقال :
« إنا لا نبلغ ما نريد فيك وفى أصحابك حتى نخوض إليكم الباطل خوفا » .



من خطبة لآبى حمزة الشارى .

وبلغ أبا حمزة ^(٢) الشارى أن أهل المدينة يعميرون أصحابه ، بحداثة أسنانهم
وخفة أحلامهم ، فصحى المنبر ، وخطبهم خطبة منها :

وقد بلغنى أنكم تنقصون أصحابى ! قلتم هم شباب أحداث وأعراب جفاة ؛
وبحكم يا أهل المدينة ! وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله
المذكورون فى الخير إلا شبابا أحداثا ؟ أما والله إنى لعالم بتتابعكم فيما يضركم فى
معادكم ، ولولا اشتغالى بغيركم عنكم ما تركت الأخذ فوق أيديكم .

شباب والله مكتملون ^(٣) فى شبابهم ، غفيرة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن

(١) هو من رؤساء الخوارج .

(٢) هو أبو حمزة المختار بن عوف الأزدي السلى من أهل البصرة ، وهو من
رؤساء الخوارج - ويسمون الشراة كقبضة جمع شار كقاض ، من شرى يشرى
كرمى أى باع - سموا بذلك لقولهم شربنا أنفسنا فى طاعة الله أى بحنائها ووهبناها
أخذنا من قوله تعالى « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله » ، أو لقولهم
شربنا الآخرة بالدنيا ، أى اشتريناها . وقد قاتل أهل المدينة ودخلها سنة ١٣٠ هـ

(٣) أى أحرزوا رزاة السكول وسداد رأيهم

الباطل أرجلهم ، أنضاء ^(١) عبادة ، وأطلاح ^(٢) سهر ، باتوا أنفسهم تموت غدا
بأنفس لا تموت أبدا ، قد نظر الله اليهم في جوف الليل ، منحنية أصلابهم على
أجزاء القرآن ، كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شرقا إليها ، وإذا مر
بآية من ذكر النار شقق شفقة كأن زفير جهنم بين أذنيه ، قد أكلت الأرض
ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم ، ووصلوا كلال لآل الليل بكلال النهار ، مصفرة
ألوانهم ، ناحلة أجسامهم ، من طول القيام ، وكثرة الصيام ، مستقلون لذلك في
جنب الله ، موفون بعهده الله ، منجزون لوعده الله

حتى إذا رأوا سهام العدو وقد فرقت ^(٤) ، ورماحهم وقد أشرعت ^(٥) ،
وسيوفهم وقد انتضيت ^(٦) ، وبرقت السكتية ورعدت بصواعق الموت . استخفوا
بوعيد السكتية لوعيد الله ، ولم يستخفوا بوعيد الله لوعيد السكتية .
وانتوا شبا ^(٧) الأسنة ، وشانك السهام ، وظبات السيوف ، بنحورهم ووجوههم
وصدورهم ، ففضى الشاب منهم قدما ، حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ،
واختضبت محاسن وجهه بالدماء ، وعفر ^(٨) جبينه بالثرى ، وانحطت عليه طير
السماء ، وتمزقته سباع الأرض . فطاوب لهم وحسن مأب .

فكم من عين في منقار طائر ، طالما بكى صاحبها في جوف الليل من خوف الله ،
وكم من يد قد أبيت ^(٩) عن ساعدها ، طالما اعتمد عليها صاحبها راكعا وساجدا ،

(١) أنضاء جمع نضو بكسر الزون : وهو الممزول

(٢) أطلاح جمع طلع وهو كنضو وزنا ومعنى (٣) الكلال : التعب والأعياء

(٤) فوق السهم جعل له فوقا (بالضم) وهو موضع الوتر من السهم أى أعدت للرمى

(٥) أشرعت : سبذت (٦) انتضيت : استلت

(٧) الشبا جمع شباه ، وهى حد كل شىء ، والفظيات جمع ظبة ، وهى حد السيف

(٨) عفر : أصابه العفر بالتحريك وهو التراب (٩) أبيت : فصلت

وكم من وجه رفيق ، وجبين عتيق (١) قد فلق بعمد الحديد؛ ثم بكى وقال : آه آه على
على فراق الاخوان ، رحمة الله على تلك الابدان ، وأدخل أرواحهم الجنان ،

- ٦ -

خطبة الحجاج بالكوفة عام ٧٥ هـ

أنا ابن جلا (٢) وطلاع الثنايا متى أضع الممامة تعرفوني
والله يا أهل العراق : إني لأرى رموساً قد أينعت وحن قطافها (٣) ، وإني
لصاحبها . وكأنني أنظر إلى الدماء بين العمام واللمحى (٤) ، ثم قال (٥) :
هذا أوان الشد فاشتدى زيم قد لفها الليل بسواق حطام (٦)
ليس براعى لابل ولا غنم ولا بجزار على ظهر وضم (٧)

(١) عتيق : كريم
(٢) ابن جلا رجل مشهور بالفتك ، فيكون سمحيم قد قال ذلك على التشبيه : أى أنا
كأب جلا فى الغارة والشدّة .

(٣) ينع (كضرب ومنع) أدرك . شبه رؤس العصاة المخالفين لأولياء أمورهم
بالتار التى تم فضجها فلم يبق إلا أن تقطف وتزال عن أغصانها .
(٤) إنما تكون الدماء بين العمام واللمحى من الضرب بالسيوف فى الجباه
وأحرار الوجوه . (٥) قال : أى الشد ، لأن قائل هذه الأبيات هو رويشد بن
رميضى العنزى ، والشعر مقول فى شريح بن ضبيعة ، غزا البين فغنم وسبأ ثم ضل وهو
راجع فساق بأصحابه سوقاً عنيقاً حتى نجوا .

(٦) زيم : اسم ناقة أو فرس . السواق الحطام : الذى لا يبق من السير شيئاً .

(٧) الوضم : ما يقطع عليه اللحم ، والمراد أنه ليس بضعيف الشأن كأحد هذين :

الراعى والجزار ،

قد انفها الليل بهصلي أدوع خراج من الدوى (١)
مهاجر ليس بأعرابي

ثم قال :

قد شمرت عن شاقها فشدوا وجدت الحرب بكم فجذوا
والقوس فيها وتر عرد مثل ذراع البكر أو أشد
لا بد مما ليس منه بد

إني والله يا أهل العراق ما يتحقق لي بالشنان ، (٢) ولا يغمز جانبي كنهماز
الذين (٣) ، ولقد فررت عن ذكاه (٤) وفتشت عن تجربة . وإن أمير المؤمنين أطال
الله بقاءه نشر كنهاته بين يديه ، فمعجم عياداتها ، فوجدني أمرها عودا ، وأصلبها
مكسرا (٥) ، فرما كمنى لأنكم طالما أوضعتم (٦) في الفتنة ، واضطجعتم في مراقدة الضلال
والله لأحزم منكم حزم السلمة (٧) ، ولأضرب بكم ضرب غرائب الأبل (٨) ، فأنكم كأهل
قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها

(١) العصلي : الشديد القوى العصب . الأروع : الذكي . الدوى : الصحراء
لاعلم بها ولا إمارة . (٢) القمقة : صوت الجلود اليابسة . الشنان جمع شن ،
وهو الجلد اليابس (كسهم وسهام) والمراد لا أفزع مما لا يفزع ذوي العقول .
(٣) أي لست بضعيف لين الجانب . (٤) فر الدابة : كشف عن أسنانها
الذكاء : تمام السن أو حدة القلب ، والمراد هنا المعنى الثاني .

(٥) السكنانة : جمعة السهام . عجم العود : عضة ليلو صلابته . أمرها : من
المرارة وهي طعم شجر المرار . المكسر : اسم مكان وهو موضع الكسر .
(٦) الأيضاع : السرعة في السير .

(٧) السلمة : شجرة شائكة يعسر خراط ورقها فيشد بعضها إلى بعض ثم يضربها
الحابط فيثاثر ورقها (٨) غرائب الأبل : أي الغريبة عن موطنها ، وهي تضرب
حين تدخل بين الأبل ويمكن ضربها بلا شفقة لأنها لا تهتم المضارب .

الله لباس الجرع والخوف . ما كانوا يصنعون . وإلى والله ما أقول إلا وفيت ، ولا أهم إلا أمضيت ، ولا أخلق إلا فريت ١١ . وإن أمير المؤمنين أمرني بأعطائكم أعطيائكم وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة ، وإلى أقسم بالله لا أجد رجلاً تخاف بعد عطائه ثلاثة أيام إلا ضربت عنقه .

ثم قال : يا غلام اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين ، فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الملك أمير المؤمنين إلى من بالكوفة من المسلمين : سلام عليكم ، فلم يقل أحد شيئاً ، فقال الحجاج اكفف يا غلام ، ثم أقبل على الناس ، فقال : سلم عليكم أمير المؤمنين ، فلم تردوا عليه شيئاً ، هذا أدب بن نهيمة ١٢ . أما والله لاؤدبنكم غير هذا الأدب أو المستقيم . اقرأ يا غلام ، فلما بلغ قوله : السلام عليكم لم يبق في المسجد أحد إلا قال : وعلى أمير المؤمنين السلام ، ثم نزل فوضع للناس أعطيائهم ، فجلسوا يأخذون حتى أتاه شيخ برعش كبيراً ، فقال أيها الأمير : إني من الضعف على ما ترى ، ولي ابن هو أقوى مني على الأسفار ، فقال الحجاج : نفعل ، فلما ولي الرجل قال قائل . أتدرى من هذا أيها الأمير ؟ قال لا ، قال : هذا عمير بن ضائب البرجمي ١٣ الذي يقول أبوه :

هممت ولم أفعل وكدت وليتني تركت علي عثمان تبكي حلاله

ودخل عمير بن ضائب على عثمان مقتولاً فكسر ضامير من أضلاعه ، فقال الحجاج : ردوه ، فلما رد قال له : هلا بعثت إلى أمير المؤمنين بدلاً يوم الدار ، إن في قتلك أيها الشيخ لصلاً للمسلمين ، يا حرمي اضرب عنقه ، فرقت الرهبة للحجاج في قلوب الناس ، فكان الرجل يضيق عليه امره ، فيرتحل ويأمر وليه أن

(١) خالق الصانع الأديم : قدره لما يريد من قبل القطع ، والمضى لا أعزم إلا صممت

(٢) رجل كان على شرطة البصرة قبل الحجاج (٣) ضائب البرجمي شاعر كان

على أيام عثمان ، وكان يضطعن على عثمان ويحاول قتله فشد عليه عثمان العقاب

يلحقه بزاده ، وفي ذلك يقول عبد الله بن الزبير الأسدي ، من شعراء الدولة الأموية ، وهو من أسد خزيمه لا أسد قريش :

تجهز فاما أن تزور ابن ضابي عميرا ولما أن تزور المهلبا
هما خطتا خسف نجاؤك منها ركوبك حوليا من البلج أشهباً (١)

- ٧ -

خطبة لقطري بن الفجاءة (٢) :

حمد الله واثني عليه ثم قال :

أما بعد ، فاني أحذركم الدنيا فانها حلوة خضرة ، حفت بالشهوات ، وراقت بالقليل (٣) وتحييت بالعاجلة ، وحليت بالآمال ، وتزينت بالغرور . لا تدوم حبرتها (٤) ، ولا تؤمن لجمتها ، غرارة ضرارة ، خوانة غدارة ، وحائلة (٥) زائلة ونافذة بائدة ، أكالة غوالة . لا تعدو إذا هي تنامت إلى أمنية أهل الرغبة فيها والرضا عنها ان تكون كما قال الله تعالى (٦) : كء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح (٧) وكان الله على كل شيء مقتدرا ، مع ان

(١) الحولى : الذى مضى عليه الحول . البليج : جمع أبلج وهو الأبيض . ويروى من

الثلج . والمعنى أنه أشد شبهة من الناج ، وصياغة التفضيل من اللون على رأى الكوفيين

(٢) قطري بن الفجاءة المازنى خطيب شاعر من أبطال الخوارج وقادتهم وبلغائهم

خرج زمن بنى أمية ، ودعا لنفسه بالخلافة عشرين سنة حتى قتل بطبرستان سنة ٩٧ هـ

(٣) راقى العين بقلة متاعها ، وتحييت إلى النفوس بكونها عاجلة ليست آجلة

كالأخرى . (٤) حبرتها : نعمتها . (٥) حائلة . متغيرة .

(٦) أى انها إذا وصلت بأهل الرغبة فيها إلى أسانهم فلا تتجاوز وصف

الله تعالى لها بهذه الآية . (٧) الهشيم : اليابس

امراً لم يكن منها في حبرة إلا أعقبته بعدها عبرة (١) ؛ ولم يبق من مراثيها بطناً
إلا منعت من مراثيها ظهراً (٢) ، ولم تطله فيها غيثة رخاء إلا هطالت عليه مزنة
بلاء (٣) . وحرى إذا أصبحت له منتصرة أن تسمى له خاذلة متذكرة ، وإن جانب منها
اعذوذب (٤) واحلول أمر عليه جانب وأوبا (٥) ، وإن أتت أمراً من غضارتها (٦)
ورفاهتها نعماً أرهقته من نوائبها نعماً ، ولم يمس امرؤ منها في جناح أمن إلا أصبح
منها على قوادم خوف (٧) غرارة ، غرور مافيا ، فان ما ليها ، لا خير في شيء من
زادها إلا التقوى . من أقل منها استكثر مما يؤمنه ، ومن استكثر منها استكثر مما
يؤبى (٨) ويطيل حزنه ، ويبيكي عينيه . كم واثق بها قد فجعت . وذى طمأنينة لئلا قد
صرعته ، وذى احتيال فيها خدعته ، وكم من ذى أبهة بها قد صبرته حقيراً ، وذى
نخوة ردت ذليلاً . . .

-
- (١) العبرة الدمعة قبل أن تفيض أي حزنته (٢) كنى بالبطان والظاهر
عن الأقبال والادبار (٣) طالت السماء الأرض : قطرت عليها
الطل . والطل : المطر الضعيف والمزنة السحابة الممطرة
(٤) أي عذب . (٥) أوبا أصله أوبا أي صارذا وباء
(٦) القوادم الريش الكبير في مقدم الجناح ، ويقابلها الخوافي (٧) يؤبى بها، أي

الكتابة في العصر الاموى

- ١ -

كان العربي في الجاهلية أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ضاعته حرب يشنها ، أو معركة يخوضها ، أو مفاخرة يدلى فيها بمفاخره ، أو منافرة يسعى لها بمآثره . لم يكن يجلس إلى العلماء ، أو يحضر حلقة مؤدب ، أو يتزود بقسط من ثقافة .

- ٢ -

وفي صدر الاسلام ، أخذت الكتابة تنتشر ، بتشجيع الرسول وخلفائه ، للحاجة اليها في تصريف شؤون الدولة ومرافقها . فقد عني الرسول صلوات الله عليه عناية فائقة ، منذ دخل المدينة ، وانتصر على قريش في بدر ، فجعل فداء الأسير تعليم عشرة من المسلمين الكتابة ، وحث على تعلمها ، واتخذ كتاباً للوحي ، وكتاباً آخرين لإحصاء الغنائم ، والاجابة على رسائل الملوك ، وغير ذلك من مختلف الشئون .

ولما اتسعت الدولة ، وأنشأ عمر بن الخطاب الدواوين ، كثرت العناية بالكتابة وعظم الاهتمام بها ، وكان من الدواوين التي دونها : ديوان الجيش لكتابة أسماء الجنود وأنسابهم وأعطياتهم ، وديوان الخراج لتنظيم إيرادات الدولة ومصرفاتها . وكان عمر يقول لكتابه : « إن القوة على العمل ألا تؤخروا عمل اليوم لغد ، فانكم إذا فعلتم ذلك تدامت عليكم الاعمال ، فلا تدرسون بأبها تبدأون وأبها تؤخرون » . وكانت الكتابة في ذلك العهد - عصر صدر الاسلام - بسيطة في مظهرها ، بلينة في جوهرها ، يغلب عليها الطبع وترك التكلف والصنعة والتعجل ، وتشيع فيها

السهولة ، ويفاقب عليها الإيجاز ، دون أن يبدو فيها أثر للتنوع والتعقيد والتعقيد واختيار الأساليب والألفاظ .

— ٣ —

وجاء العصر الأموي والكتابة على هذا النحو . فزادت العناية بها ، لا تساع أعمال الخلفاء ، وكثرة شئون الحكم ، وتعدد الدواوين فقد زاد معاوية على ما كان منها في عهد الخلفاء الراشدين .

١ — ديوان الخاتم : ومهمته أن يرسل إليه ما يكون للخليفة من توقيع ، ليصدر منه مخطوما ، لا يدري حامله ما فيه ، ولا يستطيع أن يغيره . وسبب إنشاء هذا الديوان على ما ذكره الفخري في كتابه (الآداب السلطانية) : أن معاوية أحال رجلا على زياد أمير العراق بمائة ألف درهم ، ففضى الرجل وجعل المائة مائتين ، فلما رفع زياد حسابه إلى معاوية أنكر ذلك . ثم تبين حقيقة الأمر ، فأمر بوضع ديوان الخاتم : فصارت التوقيعات تصدر منه مخطومة .

٢ — ديوان الرسائل : لكتابة الرسائل التي تصدر عن دار الخلافة . وقد اتخذ معاوية كاتبه على الرسائل عبيد الله بن أوس الغساني . وظلت سنة الخلفاء اصطناع كتاب للرسائل ، وكانت الرسائل التي تصدر عن هذا الديوان تفيض بيانا ، وينضرها جمال الأسلوب وسحر البلاغة ؛ إذ كان الخليفة هو الذي يتولى إملاء الرسائل بنفسه ، فلم تظهر للكتاب شخصية ، إلا في عهد سالم مولى هشام بن عبد الملك وكاتبه على الرسائل ، إذا كان ينوب عن الخليفة في الكثير منهما ، ويذيل بعض الرسائل بما يدل على أنه منشأ .

وكان الطابع العام للرسائل التي تصدر من الديوان أو ترد إليه . بساطة المظهر ، وعدم التكلف في الخطاب . حتى إن المكاتب ليبدأ بتقديم اسمه على اسم من يرسل إليه ولو كان الخليفة . وظلت هذه الحالة مرعية ، حتى جاء الوليد بن عبد الملك ، فأنف أن يكتب إليه مع تأخير اسمه . ومن هنا أخذت الرسائل سميتها

آخر ، يلائم رغبة الخلفاء ، ويرضى كبرياءهم . ولم يخرج على هذا النهج فيما بعد إلا عمر بن عبد العزيز ويزيد الكامل .

أما دواوين الخراج فقد استمرت الكتابة فيها بلغة البلاد المفتوحة ، حتى تم تعريبها في عهد عبد الملك بن مروان ، في مصر والشام والعراق ، من القبطية والرومية والفارسية ، على النحو الذي أشرنا إليه فيما سبق .

ونحن هنا لا نعنى بدراسة آثار ديوان الخاتم ، ولادىوان الخراج أو الجيش ، لأن الكتابة فيها لم تكن تعتمد إلا على الأرقام والأحساء ، دون أن يكون لها حظ من بلاغة القول ، ولا نصيب من جمال الأسلوب .

ولأننا نعنى بدراسة ما كان يصدر عن (ديوان الرسائل) من الكتب البليغة ، الصادرة إلى الولاة والقواد وعمال الدولة .

ويعتدنا كذلك أن ندرس ما استجد للكتابة في آخر هذا العصر من (الرسائل الانخوانية) ، التي كان ينشأها المكاتب البغاء ، فتحمل ما في قلوبهم من مودة وإخاء ، أو تصور ما تجيش به مشاعرهم من مختلف الخوارج والنزعات ، أو تعبر عما يتردد في نفوسهم من أفكار وآراء . في أسلوب رائق ، ولفظ فائق ، وتصوير جميل .

فمذان اللونان هما أهم ما أثر من الكتابة الفنية في هذا العصر ، وهما أبرز ما نعنى به بدراسته ، ونهتم بالحديث عنه . . .

وصف الكتابة الفنية :

وإن الناظر إلى هذه الكتابة الفنية ليجد أنها مرت بطورين ، وانقسمت إلى العصر إلى عهدين :

فالعهد الأول من قيام الدولة عام ٤٠ هـ ، إلى زمن الوليد بن عبد الملك . وكانت الكتابة فيه تسير على نمطها في صدر الإسلام ، من الإيجاز والوضوح

والسهولة والبساطة وقلة التكلف ، وكان أغلبها يملأ ارتجالاً ، ويصدر عن ديوان
رسائل الخليفة أو دواوين رسائل الولاية .

والعهد الثاني من أيام الوليد إلى آخر حياة الدولة ، وقد أخذت الكتابة فيه
تتدرج في التألق والصنعة والأطراب وإشراق البيان ، حتى صارت صناعة فنية
لها أصولها وقواعدها ، وكان زمامها في هذا الطور بأيدي الموالى المثقفين بثقافة
عربية واسعة ، والذين أضافوا إلى هذه الثقافة ما ورثوه من ثقافات أممهم العربية
في العلم ، فمنهم من كان يعرف الفارسية أو الرومية أو اليونانية أو السريانية ،
وآداب هذه اللغات المتنوعة ، كأبي العلاء سالم كاتب هشام بن عبد الملك ، وأستاذ
عبد الحميد الكاتب ، وأحمد الواضحين لنظام الرسائل ، وصنعة الكتابة (١) ،
وكعبلة بن سالم كاتب هشام أيضاً وكان يعرف الفارسية ، وكعبد الحميد بن يحيى
الكاتب الذى يضرب به المثل في صناعة الكتابة ، فيقال : بدئت الكتابة بعبد
الحميد ، وقد احتفل بالكتابة وتألق فيها ، ونقلها إلى مرحلة جديدة ، احتلت
فيها المنزلة الرفيعة التى كانت للخطابة ، ويجعل الدكتور طه حسين نشأة
الكتابة الفنية مدينة لعبد الحميد وعبقريته اللامحة (٢) ، ويختلف الباحثون في
ثقافة عبد الحميد المكمل لثقافته العربية : فالبعض يرون أنه كان يجيد الفارسية
ويعرف آدابها ، وينقل عنها إلى العربية ، ومن هؤلاء الدكتور زكى مبارك في
كتابه « النثر الفنى » (٣) ، وسواه ، ويستدل هؤلاء على ثقافته الفارسية بقول أبي
هلال العسكري عنه أنه « استخرج أمثلة الكتابة التى رسمها من اللسان
الفارسي فحولها إلى اللسان العربى » (٤) ، ويرجح الدكتور طه أن عبد الحميد كان
شديد الاتصال بثقافة اليونان (٥) .

(١) بروى صاحب الفهرست في صفحة ١٧١ أنه ترجم إلى العربية رسائل أرسطو إلى الاسكندر .

(٢) ٤٥ و ٤٦ — ٥٢ من حديث الشعر والنثر للدكتور طه حسين .

(٣) ١/٥٧ النثر الفنى (٤) ٦٩ الصناعتين ، ٨٩ = ٢ ديوان المعاني (٥) ٤٢ ، ٤٤ من

والحق أن عبد الحميد جدير بأن يكون شيخ الكتّاب ، لما حباه الله من مواهب عظيمة ، وصفات جليلة ، وذكاء نادر ، ولأنه تلميذ عالم مولى مشام ، وكانت ثقافته خليطاً من العربية واليونانية ، ثم كان صديقاً محاطاً لعبد بن المقفع الذي يجيد الفارسية والعربية . فاجتمع لعبد الحميد أسى مافى بلاغة العرب واليونان والفرس ، وقد استطاع بذلك أن يترك في هذه الصناعة أموراً من أهمها :

١ - استطاع عبد الحميد أن يوجز في غير إخلال حين يكون الإيجاز مطلوباً ، وبطيل في غير إملال حين يكون الطول مرغوباً فيه ، حتى قيل إنه كان يكتب في سطر واحد ما يكتبه في صفحات . . . ولقد روى أنه كتب إلى أبي مسلم الخراساني حين أظهر الدعوة لابن العباس عن لسان مروان بن محمد كتاباً يستميله فيه ، وقال لمروان : لقد كتبت كتاباً متى قرأه بطل تدبيره ، فان يك ذاك وإلا فالحلاك ، وكان الكتاب لكبر حجمه يحمل على بعير ، فلما وصل إلى أبي مسلم أمر بأحراقه قبل أن يقرأه ، وكتب على جذاذة منه :

محا السيف أسطار البلاغة وانتحى عليك إيوت الغاب من كل جانب

وقالوا : إنه كان لقدرة على الإيجاز في موضعه ، والأطناب في مكانه ، يتخير لكل منهما محله الذي يناسبه ، فيطنب في الأخبار بالفتوح ، والحث على الجهاد ، والوعد والوعيد ؛ ويوجز في أخبار الهزائم ووصف الأعداء . ومن إيجازه قوله موصياً بشخص : « حق موصل كتابي إليك كحقه على ، إذ جعلك موضعاً لأمله ، ورآني أهلاً لحاجته ، وقد أنجزت حاجته فصدق أمله » . وطلب منه مروان أن يكتب لعامل أهدى إليه عبداً أسود ، فكتب إليه : « لو وجدت لونا شراً من السواد وعدداً أقل من الواحد لأهديته » .

٢ - وقد أكثر عبد الحميد من الرسائل الإخوانية ، وكانت قبله قليلة ضئيلة .

٣ - كما أطال في الفواتح والخواتيم ، بما يعد جديداً في هذا العصر ،

كلا تبيان بكثير من التعميدات في أساليب متنوعة وصور مختلفة ، وكالبده
ببسم الله ثم اتباعها بالحمد لله فاصلا بينهما بأما يرد .

الملك هي منزلة الكتابة في العهد الثاني من عصر بني أمية ، وذلك هو مكانها
الرفيع الذي بلغته في ذلك الطور ؛ ويرجع سر ازدهارها إلى ما يأتي :
أولا : اتساع أعمال الدولة وديوان الرسائل ، مما استدعى العناية بالكتابة
والكتاب .

ثانيا : عناية الكتابة بها وجعلها صناعة فنية عتيقة ، مع تعدد ثقافتهم العربية
والاجنبية ، التي كان لها أثرها في الكتابة ، حتى يقال : إن عبد الحميد أول من نقل
تقاليد الفرس إلى الكتابة العربية (١)

ثالثا : ضعف الملكات من أثر الاختلاط وتشعب الاعمال ، فقل الحرص على
الخطابة ، وأخذت الكتابة في الظهور والذيع .

وبعد فإن للموالى - من أبناء الفرس والروم واليونان ورثة الثقافة
والمدينة - أثرا كبيرا في نهضة الكتابة ، ونحوها إلى صناعة فنية ، لها منهجها
وأسلوبها وطريق أدائها ، ولها نظامها في البدء والختام : وكان لأذواقهم أثر في
اتسامها بالسهولة والوضوح ، وفي البعد عن الغريب والوحش والتعقيد والتنافر
وتفكك المعاني والافكار ، فاشتدت الصلة بين كل جملة وأختها ، وقل الاقتضاب
والاعتراض بين أجزاء الكلام .

وفصاري القول أن الكتابة الفنية بلغت في هذا العصر غاية لا تدرك ،
ومنزلة لا تنال .

التوقيعات :

على أننا لا نحب أن نترك الكلام عن الكتابة ، دون أن ننبه إلى لون جديد منها ظهر بوضوح في هذا العصر . ذلك هو (التوقيع) ، وهو الكتابة على حواشي الرسائل التي ترفع إلى ذوي الشأن بما يفيد العلم بها ، ولإبداء الرأي فيها .

وتتمتاز هذه التوقيعات بالإيجاز ، ولطف الإشارة ، وقوة الإثارة ، وسلاسة العبارة ؛ وكثيرا ما يكون التوقيع آية مقتبسة ، أو حديثا مرويا ، أو حكمة صائبة أو مثلا سائرا ، أو بيتا من الشعر .

ويقال إن أول ما عرف من ذلك كان لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، إذ كتب إلى سعد بن أبي وقاص في بستان : « ابن ما يستر من الشمس ويكون من المطر » . ووقع إلى عمرو بن العاص : « كن لرعيك كما تحب أن يكون لك أميرك » .

ووقع سعيد بن العاص في كتاب لزياد يخطب إليه فيه : « كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » .

ووقع عبد الملك في كتاب للحجاج شكاه فيه أهل العراق : « ارفق بهم ، فإنه لا يكون مع الرفق ما تكره ، ومع الخرق ما تحب » .

وكتب عمر بن عبد العزيز توقيعا على كتاب عامل له يستأذنه في تجديد بناء مدينة : « ابها بالعدل ، ونق طرقها من الظلم » .

وكتب إليه عامله على المكوفة يخبره أنه فعل في أمر فعل عمر بن الخطاب فوقع له : « أولئك الذين هدام الله فهداهم اقتده » .

ووقع سليمان بن عبد الملك لفتية بن مسلم ، حين كتب إليه يهدده بالخلع :

زعم الفرزدق أن سيقتل مريعا أبشر بطول سلامة يا مربع ١١

واقعد دعا إلى ذبوع هذا اللون من الكتابة الفنية ، ما تكاثر في هذا العصر من مظاهر الملك ، وتنوع من شؤون الدولة ، وتعدد من حاجات الناس ومطالبهم ؛ وكان لابد للخلفاء والولاة أن يدلوا في كل ذلك برأى ، ويشيروا بما لديهم من تدبير . ومن هنا اضطرروا إلى الإيجاز في التعليق ، واصطناع الحكمة فيما يختارون من توقييع .

ومن ثم تحدث عن هذا اللون من الكتابة بأفاضرة في دراستنا للعصر العباسي .

نماذج الكتابة :

- ١ -

كان عروة بن الزبير عاملاً على اليمن لعبد الملك بن مروان ، فاتصل به أن الحجاج يجمع على مطالبته بالأموال التي بيده وعزله عن عمله ، ففر إلى عبد الملك وعاذ به تخوفاً من الحجاج ، واستدفاعاً لضرره وشره ، فلما بلغ ذلك الحجاج كتب إلى عبد الملك بن مروان :

« أما بعد : فإن لواءاً^(١) المعترضين بك ، وحلول الجانحين إلى المكث بساحتك ، واستلانتهم دمك^(٢) أخلاقك ، وسعة عفوك ، كالعارض^(٣) المبرق لأعدائه لا يعدم له شائماً^(٤) ، رجاء استمالة عفوك ، وإذا أدنى الناس بالصفح عن الجرائم كان ذلك تمريناً لهم على إضاعة الحقوق مع كل ضال ، والناس عبيد العصا ، هم على

(١) لاذ به لوزاً ولواذا ولواذا . لجأ إليه وعاذ به .

(٢) دمك دمناً كفرح فهو دمك : لأن ومهل ، والدماثة : سهولة الخلق .

(٣) العارض : المحاب المعترض في الاتفاق .

(٤) شام المبرق نظر إليه أين يقصد وأين يطر .

شدة أشد استباقا منهم على الآين ، ولنا قبل عروة بن الزبير مال من مال الله ،
وفي استخراج منه قطع لطمع غيره ، فليبعث به أمير المؤمنين إن رأى ذلك ، والسلام

- ٢ -

فكتب إليه عبد الملك :

« أما بعد فإن أمير المؤمنين رآك - مع ثقته بنصيحتك - مخاطبا في السياسة
خبط عشواء لا الليل ، فإن رأيك الذي يسول لك أن الناس عبيد العصا ، هو
الذي أخرج رجالات العرب إلى الوثوب عليك ، وإذا أخرجك السامة بعنف
السياسة وكانوا أو شك لا وثوبا عليك عند الفرصة ، ثم لا يلتفتون إلى ضلال
الداعي ولا هداه ، إذا رجوا بذلك إدراك الثأر منك ، وقد وليت العراق قبلك
سامة ، وهم يومئذ أحى أنوفا ، وأقرب من عمياء الجاهلية ، وكانوا عليهم أصلح
منك عليهم ، وللشدة واللين أهلون ، والافراط في العفو أفضل من الافراط في
العقوبة ، والسلام »

- ٣ -

وكتب بشر بن مروان إلى عبد العزيز أخيه يعتذر عن كتاب :
« بسم الله الرحمن الرحيم لولا الهفوة لم أحتج إلى العذر ، ولم يكن لك في قبوله
منى الفضل . ولو احتمل الكتاب أكثر مما ضمنته لزدت فيه ، وبقي الأماغر على
الأكاب من شيم الأكارم ، ولقد أحسن مسكين الدرايم حين قال
أخاك أخاك إن من لا أخاله كساع إلى الهيجا بغير سلاح
وان بن عم المرء فاعلم جناحه وهل ينهض البازي بغير جناح ؟

- ٤ -

وكتب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر إلى بعض إخوانه :

ه أما بعد فقد عاقى الشك في أمرك عن عزيمة الرأي فيك ، وذلك أنك ابتدأتني بلطف عن غير خبرة ، ثم أعقبته جفاء عن غير جريرة ، فأطمعني أولك في إخوانك ، وأياسني آخرك من وفائك ، فلا أنا في اليوم بجمع لك أطراحا ، ولا أنا في غد وانتظاره منك على ثقة .. فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الرأي في أمرك عن عزيمة الشك فيك ، فاجتمعنا على ائتلاف ، أو افترقنا على اختلاف ، والسلام .

وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه — لما ولي الخلافة — إلى الحسن (١) البصري ، أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل فكتب إليه الحسن رحمه الله .
ه اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام (٢) كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصالح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصف كل مظلوم ، ومفرج كل ملوم . والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله ، الرفيق الذي يرتاد (٣) لها أطيب المرعى ويدودها عن مراتع الهلكة ، ويحميها من السباع ، ويكشفها من أذى الحر والقر . والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالآب الحساني على ولده ، يسعى لهم صفارا ، ويعلمهم كبارا ، يكتسب لهم في حياته ، ويدخر لهم بعد مماته . والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرقيقة بولدها ، حملته كرها وربته طفلا ، تسهر بسهره وتسكن بسكونه ، ترضعه تارة ، وتقطمه أخرى ، وتفرح بعافيته وتغم بشكايته . والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوارح ، تصالح الجوارح بصلاحه وتفسد بفساده . والإمام العادل يا أمير

(١) هو أبو سعيد بن يسار مولى زيد بن ثابت الأنصاري ، وكان الحسن من صادات التابعين وكبرائهم وكان نسيج وحده في الفصاحة والعلم والعبادة والورع وتوفي بالبصرة سنة ١٥٠ هـ .
(٢) قوام الأمر : إعماده ونظامه .
(٣) الارتداد : طلب السكلا في مواضعه .

المؤمنين ، هو القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله ويسمعهم ، وينظر إليه وترىهم ، وينقاد إلى الله ويقودهم .

فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد انعمه سيده ، واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال ، وشرد (١) العيال ، فافتقر أهله وفرق ماله . وأعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود (٢) لينجز بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف إذا أتاها من يلها ، وأن الله أنزل القصاص حياد لعباده ، فكيف إذا قتلتهم من يقتص لهم . واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده ، وقلة أشياعك عنده وأنصارك عليه ، فتزود له ولما بعده من النزع الأكبر . وأعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلا غير منزل الذي أنت فيه ، يطول فيه ثراؤك (٣) ويفارقك أحباؤك ، ويسلمونك في قعره فريدا وحيدا ، فتزود له ما يصحبك يوم يفتر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبه وبنيه . واذكر يا أمير المؤمنين إذا بعث (٤) ما في القبور ، وحصل (٥) ما في الصدور ، فالأسرار ظاهرة والكتابات لا يفاد بصغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . فالآن يا أمير المؤمنين - وأنت في مهل قبل حلول الأجل وانقطاع الأمل - لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين ، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين ، فانهم لا يرقبون في مؤمنين إلا (٦) ولا ذمة فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك ، وتحمل أثقالك وأثقالا مع أثقالك . ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه نفسك ويأكلون الطيبات في دنياهم بأذهاب طيباتك في آخرتك ، فلا تنظر إلى قدرتك اليوم ولكن انظر إلى قدرتك غدا وأنت مأسور في حبائل الموت ، وموقوف بين يدي الله في مجمع من الملائكة والنبين والمرسلين وقد عنيت (٧) الوجره للحي القيوم .

(٢) الحدود : العقوبات الرادعة

(٤) بعث : أثبت وأخرج .

(٦) الأال : العهد .

(١) التشريد : التفريق والطراد .

(٣) الثواء : الإقامة أو طولها .

(٥) حصل : جمع

(٧) عنا : خضع .

إني يا أمير المؤمنين وإن لم أبلغ بعظمتي ما بلغه أو النهى من قبلى فلم آلك (١)
شفقة ونصحا ، فأنزل كتابي إليك كدواى حبيبه ، يسقيه الادوية الكريمة لما يرجوه
فى ذلك من العافية والصحة ، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

- ٦ -

وكتب عبد الحميد بن يحيى الكاتب إلى أهله وهو منهزم مع مروان .
أما بعد فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور ، فى ساعده
الحظ فيمساكن اليها ، ومن عضته بنا بها ذمها ساخطا عليها ، وشكاها
مستزيدا (٢) لها . وقد كانت أذاقتنا أفاريق (٣) استحليناها ، ثم جمعت (٤)
بنا نافرة ، ورمحتنا (٥) مولية . فلاح عذبا وخشن لينها فأبعدتنا عن الأوطان ،
وفرقتنا عن الأخوان فالدارنازحة (٦) والطير بارحة (٧) وقد كتبت والأيام تزيدنا
منكم بعدا وإليكم وجدا فان تم البلية إلى آخر مدتها يكن آخر العهد بكم وبنا ، وإن
يلحقنا ظفر جارح من اظفار من يليكم نرجع إليكم بذل الإسار والذل شرجار ..
نسأل الله الذى يعز من يشاء ويذل من يشاء أن يهب لنا وإلينا ألفة جامعة فى دار
آمنة ، تجمع سلامة الأبدان والأديان ، فانه رب العالمين وأرحم الراحمين :

- ٧ -

من رسالة عبد الحميد بن يحيى إلى أوصى فيها الكتاب :
بسم الله الرحمن الرحيم - أما بعد - حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة وساطعكم

(١) إني لا آلوك نصحا : أى لا أقتر ولا أقهر .

(٢) يقول : ان الانسان فى شكايته الدنيا لا ينصف منها بل كانه يستزدها . (٣) الأفاريق : جمع
أفريق . والأفريق : جمع فريقة وهى اللين الذى يجتمع فى الضرع بين الحلبتين . (٤) جمعت الدابة . غلبت
راكبا . (٥) ربح الفرس : رفس . ٦ النازح . الهجير . (٧) البارح من الظير . ماسر من ميامنك
إلى ميسرك ومن الناس من يتشام به

ووقفكم وأرشدكم -- فان الله عز وجل جعل الناس - بعد الأنبياء والمرسلين -
صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ومن بعد الملوك المكرمين - أصنافا ، وإن
كانوا في الحقيقة سواء ، وصرفهم في صنوف الصناعات وضروب المحاولات ،
إلى أسباب معاشهم ، وأبواب أرزاقهم ، فجعلكم معشر الكتاب في أشرف
الجهات ، أهل الأدب والمروءات والعلم والرزانة ، بكم تنتظم للخلافة محاسنها ،
وتستقيم أمورها ، وينصالحكم يصاح الله للخلق سلطانهم ، وتعمر بلدانهم - لا يستغنى
الملك عنكم ، ولا يوجد كاف إلا منكم ، فوقكم من الملوك موقع أسماعهم التي
بها يسمعون ، وأبصارهم التي بها يبصرون ، وألسنتهم التي بها ينطقون ، وأيديهم
التي بها يبطشون ^(١) . فأتممكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ، ولانزع
عنكم ما أضفاه ^(٢) من النعمة عليكم . وإيس أحمد من أهل الصناعات كلها
أحوج إلى اجتماع خلال الخير المحمودة وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم
أيها الكتاب . إذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صفتكم ، فإن الكتاب
يحتاج في نفسه ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمات أموره أن يكون حليما
في موضع الحلم ، فقيما في موضع الحكيم ، مقداما في موضع الاقدام ، محجما في موضع
الاحجام ، مؤثرا للعدل والانصاف ، كتوما للأسرار ، وفياعا عند الشدائد عالما
بما يأتي من النوازل . يضع الأمور في مواضعها ، والطوارق في أماكنها . قد انظر في كل
فن من فنون العلم فأحكمه وإن لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يكتفي به ، يعرف بغريزة
عقله وحسن أدبه وفضل تجربته ما يرد عليه قيل وروده ، وعاقبة ما يصدر عنه قبل
صدوره ، فيعد لكل أمر عتده وعتاده ، ويهيئ لكل وجه هيئته وعادته .

فتنافسوا يا معشر الكتاب في صنوف الآداب وتفهموا في الدين وابدعوا بعلم
كتاب الله عز وجل والفرائض ثم العربية ، فإنها ثقاف المستكم ، ثم أجيّدوا الخط
فاته حلية كتبكم . وارووا الأشعار واعرفوا شريها ومعانيها وأيام العرب والنجم

وأحاديثها وسيرها فان ذلك معين لكم على ما تسموه إليه هممكم ولا تضيعوا الزمان
 في الحساب فانه قوام كتاب الخراج ، وارغبوا بأنفسكم عن المظالم من
 دنياها وسفساف الأمور ومحاقرها ، فانها مذلة للرقاب ، مفسدة للكتاب ، ونزلة
 صناعتكم عن الدعاة ، واربطوا بأنفسكم عن السعاية والنيمة وما فيه
 الجاهالات . وإياكم والكبر والسخف والعظمة ، فانها عداوة مجتابة من غير إحسان
 وتحابوا في الله عز وجل في صناعتكم ، وتواصوا عليها بالذي هو أبقى لأهل
 الفضل والعدل والنبيل من سلفكم . . .

الشعر في العصر الأموي

للشعر في النفوس منزلة لا تسامها منزلة ، ومكانة لا تدانيها مكانة ، وله على القلوب سلطان لا يطاوله سلطان ، فهو بما يثر من أحاسيس ، ويح من مشاعر ويحرك من عاطفة ، يدعو إلى الأخذ بأسباب المجد ، ويحث على اكتساب الحمد ، ويحفز العزائم ، ويوقظ الهمم ، ويسبب عما يحتاج في نفوس الناس من آمال وآلام ، وما يساورهم من أمان وأحلام . فهو المראה الصادقة لحال المجتمع من سعادة وشقاء ، وصلاح وفساد ، واللسان الناقد الموجه الذي يرهبه الحاكم ، ويستعين به أصحاب النفوذ وأرباب السلطان ، في تثبيت ملكهم ، وتأيد سلطانهم . كذلك كانت منزلة في الجاهلية : نشر القبيلة ، وعنوان مجدها ، وبرهان حسمها ، يذيع محامدها ، وينشر فاضلها ، ويرفع من قدرها ، تعزله الجبابرة ، ويرهبه الطغاة ، ويقوى به الضعيف ، ويذل بسببه الشريف ، ثم كان التغيير الذي تحتاج له الحروب ، وتعصف الخصومات ، وتلهب نيران العداوة ، وتأجيج الحفائظ . والترات ، وإلى ذلك كان الداعي إلى السلم ، والمنع من الحرب ، والمصون لآهوالها وفظائنها :

وما الحرب إلا ما علمتهم وذقتهم وما من عنها بالحديث المربوم

فلمستجيب له النفوس النائرة ، ونشده النيران المتقدة .

وكان في الإسلام لسان الدعوة الطاهر ، وبرهانها الساطع ، المنافع عن مبادئها ، والمناهض لأعدائها ، والمنزعة لخصومها ، حتى استطاع أن يحل من نفس الرسول صلى الله عليه وسلم منزلة كريمة ، ويتبوأ مكانة رفيعة . وقد استعان

به صلوات الله عليه في مناهضة المشركين ، وإسكات الآلة الاذنة التي أنطقها
شياطين الشرك .

A نهاية الامويين به وأسبابها :

وفي عهد بني أمية تكاثرت مظاهر الحياة ، وتنوعت صور الحضارة ،
وتشعبت مذاهب الجماعات ، وتجددت نوازع العصبية ، وتعددت ألوان الخصومات
وانقسم الناس في عواصم الدولة وحواضر الملك : شيعة وأحزابا . لكل شيعة
هوى ، ولكل حزب رأي . ولكل جماعة وجهة تقارع حجة ، وقول يناهض
قولا ، والآلة تحاول إسكات الآلة .

فقد علمنا أن ملك هذه الدولة قام بقوة السلطان ووجد السيف ، ونهض به
معاوية وخلفاؤه ، فبعد حروب مريرة ، أزعجت فيها أرواح ، وسفكت دماء .
فلما استقر لهم الأمر ، ظلت نفوس كثير من المسلمين تنطوي على ما كانت تضمره
لهم من ضغن وعصبية . ومن هنا نشأت تلك الأحزاب السياسية التي قاومت
سلطانهم ، وتناوأت نفوذهم ، وكانت عليهم حربا شعواء ، أذلتهم الأسان والسنان .
فإذا نهض أنصار الأموية يمدون يدا في الشام ، لتدعيم سلطانها ، وتقوية بنيانها
والحكيم خافي الخش ، يشيدهم شرار أتقواهم كعجيز وقرزدق والاعطل . .
فقد كان هناك في الحجاز حزب الزبيريين ينتفض على الدولة ، ويحاول استلاب
الحكم ، ولهذا الحزب شراراء يهتدون الناس إليه ويؤيدون النفوس على خصومه ،
كعب الله بن زيد الزبيات . وكان في العراق حزب يناصر أهل البيت ويتعصب لهم ،
ويرى أنهم أحق بالخلافة ، وأهل بأمر المسلمين من بني أمية ، ولهذا الحزب شعراء
في كل مكان ، يفرزون جماعة المواليين ، ويندحرون بفضائح الأمويين ، ومن هؤلاء
الكهيك صاحب الطاشحات . . . وهناك حزب الخوارج ، ومن شرارائه قطاوى
ابن الفجاعة ، وعمران بن حطان .

ومعكمنا وجدت ذراعي الشعر ريواعته ، ومعهذت الأسباب التي نهيج

شياطينه ، وقبعت أفانينه ، وتدعوا إلى إجابة القول فيه ، حتى لقد نبتغ في هذا العصر ما يزيد على مائة قول من قول الشعر ، ما بين مصور لمطالع الملك ، وألوان الحضارة ، ومعبى عن أهواء النفوس ، ونخطرات الألفدة ، وناطق بما تفصح به المصديقات السياسية من نوازع ورغبات .

وهكذا اشتدت الحاجة إلى الشعر تأييداً للملك ، أو انتقاماً عليه ، وازدادت العناية به ، وعظم الاهتمام بأصحابه . هذا إلى ما سبق أن أوضحناه في أسباب العناية بالأدب ، من أن القوم عرب ، يطربهم الشعر القوي ، ويهزهم القصيد الرائع ، وتدعوهم الرغبة المتقدة في نفوسهم ، إلى تشجيع الشعراء ، واصطفائهم ، وتقديرهم لهذا الفن ، واعترافاً بسلاطنته على النفوس ، وتأثيره في الجماعات .

ومن هنا رأينا غلفاء بني أمية يقتضون الشعراء ، ويخصونهم بجزيل العطايا وعظيم المناسبات ، ويسلمون عليهم في فبر خصومهم ، وثلث أعدائهم ؛ بل يغضون عن عيوبهم ، ويأخذونهم من حسناتهم ، وتقديرهم لهم ، أو رغبة في اصطفائهم .

ولقد دعاهم جميع الشعراء ، وتكبرهم لثقافته ، إلى الحرص على روايته ، والإنصات لآرائه ، وعند الجاهل نفسه واستراض جوده ، والموازنة بين المعاني التي يعارضها الشعراء ، والمفاعلة من أكتافهم وفتالهم .

قال هشام بن عبد الملك لشعبة بن عتابة ، عنددهير و الفرزدق والأخطل وهو يومئذ أمير : ألا تخجلوني من هؤلاء الذين قد موقوا أعراضهم ، وهتكوا أستارهم ، وأغروا بين حصارهم في غير رلا بر ولا نفع ، أيهم أشعر ؟

فقال شعبة : أما جبر فيعرف من شعر ، وأما الفرزدق فينحت من صخر ، وأما الأخطل فيجهد المسح والشعر .

فقال هشام : ما فسررت لنا شيئاً نحصله . فقال : ما عندي غير ما قلت . . فقال لخالد بن صفوان : عرفهم لنا يا ابن الأعمى ، فقال : أما أنظفهم نفراً ، وأبعدهم

ذكرا ، وأحسنهم عدرا ، وأسيرهم مثلا ، وأقلامهم غولا ، الطامى إذا زخر ، والخاصى
إذا زار ، والسامى إذا خطر ، الذى إن عذر قال ، وإن خطر صال ، القصير
اللسان ، الطويل العنان ، فالفرزدق . . . وأما أحسنهم نعمتا ، وأمدحهم بيتا ،
وأقلامهم فوتا ، الذى إن هجا وضع ، وإن مدح رفع ، فالأنخطال . . . وأما أغزرهم
بحرا ، وأرقهم شعرا ، وأهتسكهم لمدوه شعرا ، الأغر الأباقي ، الذى إن طلب
لم يسبق ، وإن طلب لم يلحق ، بخرير . . . وكلهم ذكى الفؤاد ، رفيع الهماد ،
وارى الزناد .

٢ - وسأل يوما عبد الملك بن مروان :

من أشجع الناس شعرا ؟ فقيل : عمرو بن معد يكرب . فقال : كيف وهو
الذى يقول :

جاشت إلى النفس (١) أول مرة فردت على مكرورها فاستقرت

قالوا : فعمرو بن الأطنابة ، فقال : كيف وهو الذى يقول :

وقولى لي كلما جشأت (٢) وجاشت مكانك فحمدني أو تبتريحي

قالوا : فعمرو بن الطفيل ، قال : كيف وهو الذى يقول :

أقول لفس لا يجساد بمثلها أقلى مراحا لاني غدير مدبر

قالوا : فمن أشجعهم عند أمير المؤمنين ؟ قال : أربعة . عباس بن مرداس

السلى ، وقيس بن الخطيم الأوسى ، وعنترة بن شداد العبدي ، ورجل من بني
مزينة ، أما عباس فقوله :

أشد على الكتبية لا أبالي أفيها كان حثني أم سواها

وأما قيس فقوله :

(١) جاشت النفس : اضطربت من الفرع ، وأصل جاشت : غشت وغطت

(٢) أى انفعمت من حزن وفرح

ولاني اني الحرب العوان موكل بتقديم نفس لا أريد بقاءها
وأما عنتره فقوله :

إذ يتقون في الأمانة لم أخم عنها ولكن قد تضايق مقدمي
وأما المزني فقوله :

دعوت بمضى قحافة فاستجابوا فقلت : ردوا فقد طاب الورود
وقال الشعبي : دخلت على عبد الملك بن مروان في عاتيه التي مات فيها ؛
فقلت : كيف تجددك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : يا شهبي : أصبحت كما قال
عمرو بن قيس :

وأهلكتني تأميل يوم وليلة وتأميل عام بعد ذلك وعام
على راحتين تارة وعلى العصا أنوء ثلاثا بعدهن قيامي
فقلت : ليس كذلك يا أمير المؤمنين ، ولكن كما قال أبيد وقد بلغ مائة سنة :
ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الخلق : كيف أبيد ؟
فلما بلغ مائة وعشرا قال :

أليس ورائي إن تراخت مني لزوم العصا تحنى عليها الأصابع
فلما بلغ ثلاثين ومائة وأدركته الوفاة قال :

تمنى ابتائى أن يعيش أبوها وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر
فإن كان يوما أن يموت أبوك فلا تخمشا وجهها ولا تحلقا شعر
فتبسم عبد الملك وقال : لقد قريت من نفسي ، وملاني من بأس ، وأمر لي
بصلة ، وأجلتني أحده حتى امسيت ، وخرجت من عنده ، فما أصبحت حتى سمعت
الصراخ في داره .

ومن هذه الصور إلى ما سبق من أمثالها ندرك عناية الأسويين بالشعر ،
ومبلغ تقديرهم لرسائله ، ومدار حبهم له وعظيم منزلته في نفوسهم ، ودقة
أحكامهم في النقد والتميز .

أثر هذه العناية :

واقعد كان لهذه العناية البالغة أثر عظيم في عقل الشعر ، وتم تزيين أماليه ،
وتجديد معانيه ، والسمو بأخيلته . إذ أدرك الشعراء أن تعاليمهم إنما تكون على قدر
إجادتهم وسبقهم ؛ فبالفرا في تهذيب أشعارهم ، وعرضوا على الخلق والسبق في
مهارتهم ، لينالوا الإعجاب ، ويحفظوا بما يلهيهم من الجوائز والصلوات .
على أنه كان ثمة شعراء يأنفون أن يجعلوا أشعارهم وسيلة إلى الكسب
واستجداء العظماء ؛ وهذا عمران بن حطان : يقف على الفرزدق وهو ينشد
شعره ، فيقول له :

أيها الساجد العباد ليعلم أن الله ما بأيدي العباد
فصل الله ما طابت إليهم وأرج فضل المقسم العواد
لا تقل للجواد ما ليس فيه وتسمى البخيل بالجواد

هذه آثار العناية بالشعر في نفوس قائله ، وفي جوهر الشعر نفسه ، وقد تبع ذلك
أن أغرم به الناس ، وتبعوا كل ما يهين من الشعراء من قول سائر في مدح
أو نحر أو هجاء أو غزل ، وأخذوا يمتدحون جيد المعاني ، ويشتمون للشعراء ؛
حتى وجد لكل شاعر أنصار يقدمونه على غيره ، ويمتدحون بما يقول ، ولو أدى
ذلك إلى التجهل بالسيوف والمقارعة بالحرايب .

وبلغ من قوة تأثير الشعر وعظيم سلطانه ، أن الناس كانوا يفرقون أشد
الفرق من سوط الهجاء ، حتى ليؤثر أن امرأة من بني جعفر بن كلاب خافت على
نفسها من هجاء الفرزدق ، حين تناول قومها ، فعازت بقبر أبيه ؛ فأعفاها من
هجائه ، وقال :

عجوز تصلي الخمس عازت بغالب فلا والذى عازت به لا أضيرها

ويروى في مبلغ تأثيره والاستجابة لشفاعته :

أنه لما ولي الحجاج تميم بن زيد ، المند ، دخل البصرة ، فدخل يفرح من أهلها من شاه ، وكان ممن أخرجه ابن لعمرون ، فلم يجد من يعرفه ، ويرد عليها ولدها سوى الفرزدق ، فجاءت إليه ، وقالت : إن أمتك قد بقيت إليك ، وأنت بحفنة من ترابه ، وقصمت عليه قصتها . فمكثت إلى تميم ينشئ في ديارها خنيس :

تميم بن بدر لا تكون حاجتي يظهر فلا يريها على منارها
وهب لي خفيها واحتجب فيه مئة فبيرة أم خنيس غرابها
أنتى فمأذت ياتيم بنسالي وبالحقرة الماني عليها نرابها
وقد علم الأقوام أنك ما جد وليت إذا بالحرب شرب أوارها
فلما قرأ تميم هذا الشعر اشتبه في الاسم : أخنيس أم خنيس ، فقال : انظروا من له مثل هذا الاسم في عسكرنا ، فأصيب ستة مائة خنيس وخنيس ، فأعيدوا إلى أديهم .

وخلاصة القول أن الشعر بلغ في ظلال هذا العهد من الجزالة والقوة ومن سمو المعاني وانضج الأساليب ، ما جعله يتمكن من النفوس ، ويصل إلى أعماق القلوب ، ويستولى على مكان الرعاية ومواطن الانجسالات من الخلفاء والولاة ، ومن خاصة الناس وعامتهم . ولهذا بقي نقى الصفحة ، لامع الروق ، ناضر البهاء .

— أغراض الشعر الأموي —

طرق الشعراء في هذا العصر جميع الأغراض التي تنازلها الشعراء من قبل ، كالمديح والفخر والهجاء والرائ والفرج ، ونحو ذلك من الأغراض العامة التي يتداولها الشعراء في كل عصر ، بيد أن هذه الأغراض قد تأثرت بما جدد من

مظاهر الحضارة والوان الترف ، وتمكنت بصورة اليشة واحوال المجتمع ، وظروف السياسة .

وقد استجذبت في هذا العصر أغراض لم تكن موجودة من قبل ، كالشعر السياسي الذي كان صدى لهذه الخصومات السياسية ، والمدارات القبلية ، والمنافرات الحزبية ؛ وكانواع من الغزل لم تكن معروفة من قبل ، والوان من وصف البلاد المفتوحة ، ونحو ذلك من تصوير لعقيدة دينية ، أو دعوة إلى زهد وتقشف ، مما امتدعته مظاهر الحياة الجديدة والابسانها .

وينبغي أن نلاحظ أن هذه الأغراض جميعها قد اختلفت باختلاف الأقاليم ، وتأثرت بأحوال البيئات ، ففى الحجاز كثير الترف ، وفاض الثراء ، وشغل شباب الهاشميين بما أتيح لهم من فراغ ولذع ، عن المطالبة بالملك ، والاشتغال بالسياسة ، وانصرفوا إلى مجالس الغناء ، ومشاهد الميسال . فشاع لذلك الغزل الرقيق ، والتشبيب العائث .

وفي العراق كثرت الأحزاب واضطربت العصبيات ، واستحكمت الخلاف السياسي ، واشتدت المعارضة لبني أمية ؛ فكان الشعر العراقي صورة واضحة لما يحدث في المجتمع من حياة ثائرة ، وفنتة حارسة ، وخصومات عنيفة ، فهو قوى عنيف يكثر فيه الفخر والجهاء ، ويصطبغ بالعصبية البدوية الجزلة ، وفي هذه البيئة ولد الشعر السياسي الذي يعد جديداً في هذا العصر .

— أما الشام فكان عهد الملك ، ومقر الخلفاء ، ومثابة الشعراء ، وكنعبتهم التي يحجون إليها ، حاملين ما جادت به خواطرهم ، وفاضت مشاعرهم ، ثم يعودون وقد احتقبوا سنى الجوائز ، وعظيم الصلوات . وفي ظلال الخلافة بالشام جرت ريمع الشعر رخاء ، تطرق أبواب أغراضه الأخرى في رفق ويسر : من وصف ومدح ونحو ذلك .

الشعر السياسي :

استبان لنا مما قدمنا من دراسات أن هذه الدولة قامت على أسنة الحراب والرماح ، وحاشت كذلك مدة حياتها ، تجالد خصوماً أقوياء ، وأعداء ألداء يحرجونها بالأسنة ، ويقاومونها بالأسنة ، وكان لكل حزب من خصومها شمراء يتعقبون مثالها ، وينددون بسياستها ، ويشيرون الحفائظ عليها .

وكان كل شاعر من هؤلاء يشيد بحزبه ، ويدعو له ، ويؤلف القلوب حوله ، ويهجو خصومه السياسيين ، ويرثي شهداء جماعته .

١ — فهذا السكيت يتعصب أشد التعصب لبني هاشم ، ويتقف عليهم قلبه ولسانه ، غير مبال بما يلحقه من إنداء ، وما يناله من ضرر . وهو القائل :

طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب	ولا لعباً مني وذو الشيب يلعب
ولم يلحن دار ولا رسم منزل	ولم يتطربني بنات مخضب
ولا السانحات البارحات عشية	أمر سليم القرن أم مر أعضب (١)
ولكرب إلى أهل الفضائل والتقى	وخير بني حواء والخير يطلب
إلى النفس البيض الذين يحبهم	إلى الله فسيما نابي أتقرب
بني هاشم رهط النبي فأنى	بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب
خففت لهم مني جناحي مودة	إلى كنف عظماء أهل ومرحب
وكنت لهم من هؤلاء وهؤلاء	حباً على أني أذم وأقضب (٢)
وأرمي وأرمي بالعداوة أهلهما	وإني لا وذي فهمو وأؤنب
فقل للذي في ظلم عمياء جرة	ترى الجور عدلاً أين (لا أين) تذهب
بأي كتاب أم بأية سنة	ترى حبه عارا على وتحسب

وقالوا ترابي هـ وادى وادى بذلك ادعى فيموت وألقب (١)

وفي هذه الفسحة الهاشمية حجاباً في الخلافة فثاقفته شعور آل البيت :

يقولون لم يورث ولولا ترأه لقد شركت فيه بنيل وأرحب (٢)

فان هي لم تصلح لحي سواهم ابن تميم القريب الحق وأقرب

فيالك أمراً قد أشقت بهرته ردأرا يرى أسبابها تنقض (٣)

تبدلت الأشرار بعد خيارها وجدت بها من أمة وهي تلب

وهذا كثير عزة يشرح عقيدة الشيعة في الإمامة بقوله :

ألا إن الأئمة من ترأى وثقة الحق أربعة سـواء

(علي) والثلاثة من بنيه ثم الأسباط الذين بهم خفاء

فسبط سبط زيدان وبر وسبط فبيته صكر بلاد

وسبط لا يفرق الموت حتى يتوت الخيل يتقدمها اللواء

تغيب لا يرى فيهم زمانا برضـوى عنده عمل وماء

ويميدب الكيف على بنى أمية بنورهم ، ويدعو الله أن تدول الدرلة للهاشميين :

فقل لبنى أمية حيث حملوا وإن خفت المنند والقطيعا

أجاع الله من أشبعتموه وأشبع من بجوركمو أجيما

بمرضى السياسـة هاشمي يكون حياً لامتـه ربيما

٢ - وهذا عبد الله بن قيس الرقيات من حزب الزبيريين ، يمدح مصعب

ابن الزبير ويفخر بقريش ، ويندد بمخضومهم :

حبذا العيش حين قومي جميع لم تفرق أمـورها الأهواء

قبل أن تطمع القبائل في مالـ لك قريش وتشممت الأعداء

(١) ترابي نسبة إلى علي بن أبي طالب الملقب بأبي تراب

(٢) بجيل وأرحب قبيلتان (م) تنقض : تنقطع

أيها المشتهى فناء قریش
 إن توضح من البلاد قریش
 لو بكت هذه السماء على قبر
 إنما مسبب ضباب من الدم
 ملكه ملك قوة ليس فيها
 أنا عنكم بن أمية مرز
 إن قتلي بالظاف قد أرجعت
 يمد الله عزها والفناء
 لا يمكن بدم الحي بقاء
 مكرام بكت علينا السماء
 قد تجلت عن سبب الظلماء
 محبتك ولأبد كبرياء
 رأيتكم في نفس الأعداء
 كان منكم ثل قتلتم شفاء (١)

٣ وعؤلاء الله أرج يفترق دانا للدولة العنق في الطوق ، والقذى في
 العيون ، ترصد لهم الدولة أعنى القوى ، والذى الآمل ، فلا تستطيع أن تضعف
 لهم شوكة ، أو تضعف منهم قوة ، أو تسكت منهم لسان . فهم بما تغفل في قلوبهم
 من عقيدة ، واستقر في نفوسهم من مذاهب ، لا يفتأون بحالدون الحاكين في
 عنف ، ويصلحون مخالفهم في الأبد ، في قوة مرز ، وحلافة عنيفة . وهذا
 شاعر من شعرائهم ، هو تدارى بن الفهامة يصف ، وقد دانت فيها رحى الحرب
 بينهم وبين أهل البصرة ، في يوم الثلاثاء ، رضى الله بذلك العزاز :

لعمرك إن في الحياة لواحد
 من الخفريات البيض لم يرملها
 لعمرك إن يوم الظم وجهها
 ولو شهدت يوم دولا ب أبصر
 غداة طغت علماء بكر بن وائل
 وكان لعبد القيس أول جدها
 وظلت شيوخ الأزدي حومة الوشى
 فلم أر يوما كان أكثر مقعصا
 وفي العيش عالم ألو أم حكيم
 شفاء لذي بث ولا تسقيم
 على ثبات الدهر جد ليم
 طمان فتي في الحرب خير ذم
 ونحن صدور الخيل نحو تميم
 وأحلافها من يحسب وسام
 تموم ونظنا في البلاد نعوم
 يمج دما من فائظ وكليم (٢)

(١) الظاف : موضع قرب مكة دار فيه قتال بين الأمويين والويعيين

(٢) مقعصا : قتلا . فائظ : ميت . كليم : جريح

وهضارية خذا كريما على فتي أغر نجيب الامهات كريم
أصيب بدولاب ولم تكن موطننا لك أرضى دولاب ودير حريم
قلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا تبجح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الاله نفوسهم بجنات عدن عنده ونعيم
فهو بهذا يعتبر أعداء حزبه كفارا ، تسباج دأؤهم ، ويعد قتل الخوارج
شهداء باعوا نفوسهم بجنات النعيم .

وهذا عمران بن حطان وكان مذاليا في النعمان بن علي (علي) يمدح ابن ملجم قاتله :
لله در المرادي الذي سفكت كفاه مهجة شر الخلق إنسانا
أمسى عشية غشاه بضربته بما جناه من الآثام عريانا
ياضربة من كريم ما أراد بها إلا لبليغ من ذي العرش رضوانا
إني لأفكر فيه شم أحبيه أوفى البرية عند الله ميزانا

واعل صرامة هؤلاء الخوارج في الحرب ، وبسالتهم في القتال ، وحماستهم
المنقطعة النظير ، في الدفاع عن الرأي ، والقناء في العقيدة : تتمثل في إحدى
نسائهم ، وهي أم حكيم ، التي كانت تحمل على خصومها في إحدى المواقف ، وترتجز :
أحمل رأسا قد سحقت حمله وقد ملأت دهنه وغسله

ألا فتي يحمل عنى ثقله

٤ - وهؤلاء الأمويون كانوا أسبق الناس في ابتداع هذه البدعة ، واستئنان
هذه السنة ، وإثارة الشراء وتحريضهم على خصومهم : أثاروا الأخطل شاعرهم
على الأنصار ، فجهلهم بقوله :

ذهبت قريش بالمكارم كلها واللوم تحت عمام الأنصار
مما اضطر النعمان بن بشير الأنصاري إلى الدخول على معارية ، متألما شاكيا ،
قائلا من قصيدة له :

ولماني لأغضي عن أمور كثيرة ستزقي بها يوما إليك السلام

وقد كثر الشعراء الذين يهجون الأمويين ، وينتقدون سياساتهم ، وكان شعراء
 الأمويين الكثيرون ، يصعدون هذه الجبال ، ويردون على هذه الانتقادات ،
 ويمدحون بني أمية ، ويهجون خصومهم ، فهذا أعرشي ربيعة يقول في مدح
 عبد الملك وحجاء الزبيرين :

آل الزبير من الخلافة كان	عجل التناج يحملها فأحاطها
أو كالضفاف من الحولة حلت	ملا تطبق فضيحت أحاطها
قوموا إليهم لا تناموا عنهمو	كم للغواة أطلتموا إيهالها
إن الخلافة فيكمم لا فيهمو	مازلتو أركانها وثمالها
أمسوا على الخيرات قفلا مفلحا	فانمض بيحكك فافتتح أقفالها

وهذا الأخطال يقول في مدح عبد الملك وذم خصومه :

تسوي فداء أمير المؤمنين إذا	أبدى النواجز يوماً صارم ذكر
السيافض الذمرة الميسون طائرهم	خليفة الله يستسقي به المطر
في نبتة من قریش يصعدون بها	ما إن يوازي بأعلى نبتها الشجر
حشد على الحزب عياقر الدنيا أنف	إذا ألت بهم مكروهة صبروا
لايستقل ذور الأعداء حرمهمو	ولا بين في عيسدادهم خور
شمس المدارة حتى يستقاد لهم	وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا
بني أمية نهاكم بحسلة	تمت فلا مئة فيها ولا كدر

وفيها يقول :

بني أمية إلى اسح لساكو	فلا يدين منكم آمنا زفر
فان مشهده حشكر ونائلة	وما يغيب من أخلاقه وعر
إن العداوة تلتاما وإن كمنت	كالمر يكن حيناً ثم ينتشر
بني أمية قد باضت دونكمكر	أبناء قوم همو آووا وهم نصرورا

وبعد فهذا اللون من الشعر بحر زانجر ، تلاطمت أمواجه ، وتدافعت أثباجه
في هذا العصر المضطرب بالوان العدييات السياسية والقبلية ، وبحسبنا منه هذه
القطرات التي تشب عن أمم عنامره ، وأرضع مناحيه ، من مدح مشوب
بالتعريض ، أو هجاء توحى به الاحقاد ، أو جدل حول فكرة سياسية ، أو
شرح لعقيدة دينية أو سحرية . فهو بهذه الألوان المتعددة ، والمعاني المتنوعة ،
والكثرة الزائفة ، يندّ غرضاً جديداً في هذا العصر .

شعر الشعوبية :

ولا يفترنا أن نذكر أن شدة العرب على غيرهم من الموالى في هذا العصر ،
واعترازهم بكل ما هو عربي ، واعتزازهم لكل ما هو أجنبي ، وأنفتحت منه : جعل
أناساً من الموالى يشعرون العداوة العرب ، وإن منهم قوة الدولة ، وعنفوان
سلطانها ، أن يظهر رأيهم العداوة وإن يملأوا تلك الشعوب : إن لقد كان يجري
على السنتهم أحياناً ما يعبر عما يستكن في قلوبهم من خساسة وموعدة على العرب ،
ويحاولون أن يظهر رأيهم قومهم ، في عصبية لا جناح لهم ، واعتزاز بشعوبهم . وقد
سمى هؤلاء « شعوبين » (١) ومن هنا بدأ يظهر لون جديد من ألوان الأدب ،
وغرض مستحدث من أغراض الشعر ، هو الشعر الشعبي ، وقوامه العلم على
العرب ، والاعتزاز بالأعاجم وخاصة « الفرس » والاشادة بمجذاتهم ومجدهم
وما كان لهم من ملك وساطان .

وسنرى أن هذا اللون من الشعر قد اتسع اتساعاً شاملاً في العصر العباسي ، حتى
خالف ثروة خصصة من الشعر العربي .

ومن شعراء الشعوبية في العصر الأموي : اسماعيل بن يسار وإخوته محمد

(١) نسبة إلى الشعب جمع شعب ، وهو جبل من الناس أو مع من القبيلة : أو من الشعوب في قوله
تعالى : « وجعلناكم شعوباً وقبائل » على أن المراد بالشعوب العجم وبالقبايل العرب .

وأبراهيم وهم من جنس فارسي ، والحقيقة طالع الشاعر . هو من سلاله حبشية ، وابن رباح وهو من أصل ذنبي :

وهذا اسماعيل بن يسار يدخل على هشام بن عبد الملك في خلافته ، فينشده شعرا يقول فيه :

إني وجدك ماعودي يذى نور عند الحفاظ ، ولا حوضي بمهدوم
أصلي كريم ومجدي لا يقاس به ولي لسان كحد السيف مسموم
أحى به مجد أقوام ذوى حسب من كل قوم يتاجع الملك معدوم (١)
من مثل كسرى وسايور الجنود معا والهرمزان : الفخر أو الشظيم
أسد الكتاب يوم الروح إن وحفوا

وم أذلوا مساوك السترك والروم
هناك إن تسألني بأن لسانا جرثومة قهرت عن الجراثيم
فغضب هشام ، وقال : أحلى تنفخ . رأياني تفرق قصيدة تمسح بها نفسك
وأعلاج قومك ؟ غار في الماء ، فغار في البركة حتى كادت نفسه تخرج ! ثم
نفاه من رفته إلى الجوار (٢) .

ويقول اسماعيل الثاني قصيدة أخرى :

رب خال صريح لا يا حبيب عجب كريم النصاب
إنما سمى الفرائس بالفرا من حضرة رقة : الأنساب
فاتركى الفخر يا أم عليا وانزكى الجود وانطق بالصواب
واسألى ان يهلك حما ونكم كرف كفا لي سائق الاحتباب
إذ نرى بناتنا وتدمر في سناحنا بناتكم في التراب

(١) القدم : السيد الكريم . معدوم : معتم وبالعامة .

(٢) الأناى ١٢٠ ج ٥ .

ولما انشد إسماعيل هذه الآيات ، قال له رجل عربي من كان يسمعه :
 إن حاجتنا إلى بناتنا غير حاجتكم إلى بناتكم ، فأخذه ، يريد أن يعجم يريون
 بناتهم لينكحوهن ، والعرب لا تفعل ذلك .

ويقول الحبقطان في الرد على جرير ، حين عيره بسراده ، يتعصب لأصله
 الحبشي ويفتخر به على العرب ، وهي قصيدة تحتج بها الليثية على قريش ومضر ،
 وتحتج بها العجم والحبش على العرب :

أئن كنت جمد الرأس والجلد فاحم	فاني لسبط الكف والعرض أزهـر
وإن سواد اللون ليس بضائر	إذا كنت يوم الروع بالسيف أخطر
وإن كنت تبخى الفخر في غير كنهه	فرهط النجاشي منك في الناس أنخر
فلقمان منهم وابنه وابن أمه	وأرملة الملك الذي ليس ينكر
غراكم أبو يكسوم ، في أم داركم	وأنتم كفيض الرمل أو هو أكثر
وما الفخر إلا أن تبيتوا إزاءه	وأنتم قريب ناركم تتعمر
ويداف منكم قائد ذو حفيظة	فكافه طوراً وطوراً يدبر
وأما التي قلتم فتاكم نبوة	وايس بكم صين الحرام المستر
ألسن كليبيا وأمك نعمة	لكم في سمان الضأن عارومفخر

ويقول ابن رباع وهو من أصل زنجي يهجو جريرا ويفخر عايه بقومه :

ما بال كلب من كليب سبنا	أن لم نوازن حاجبا وعقالا
والزنج لو لا قيتهم في صفهم	لاقيت ثم ججاجها أبطالا
لجعوا زيادا بابنه وتنازلوا	لما دعوا لنزال ثم نزالا
أبناء كل نجبية انجبية	أسد تربب عندها الأشبالا
فلنحن أنجب من كليب خؤولة	ولانت الأم منهم أخوالا

الهجاء :

انتشر الهجاء في هذا العصر انتشاراً كبيراً ، لكثرة أسبابه ، وتعدد دواعيه ، فقد كان هناك هجاء سياسي بين شعراء الأحزاب كما أسلفنا ، وهجاء شخصي بين الشعراء أنفسهم ، دعت إليه المنافسة على أبواب الخلفاء والولاة ، أو العصبية للقبيلة ، وافتدأ فحش الشعراء في هذا الباب ، وألحوا على ذكر المثالب والعيوب ، وابتشروا ما حرص الإسلام على دفعه ، من إهانة الخصومات ، وبعث الدواوات . وأشهر ضروب المهاجاة في العصر الأموي المهاجاة بين جرير والفرزدق والأخطل ، فتمدد قذفوا كل عرض ، واتهكوا كل حرمة . وشجعهم على ذلك حرص الخلفاء على أن ينصرف الناس باستماع هذا الشعر ، والخلاف فيه ، عن معارضتهم في السياسية ، وهنازعتهم على السلطان :

والدارس لما غاضب به قرائح الشعراء في هذا العصر يرى أنهم لم يتورعوا ، ولم يحجزهم تقى ، لا دين ، عن رمي المحصنات ، وقذف الأعراض حتى كان الناس يستعجبون بقبح غالب أبي الفرزدق من هجائه فيجبرهم ، وكان جرير كذلك مولماً أشد الولع بالوقوع في الأعراض ، ويبدد النساء شطر الهجاء ومادة الإقذاع ، حتى يقال إنه دعا رجلاً من شعراء بني كلاب إلى مهاجاته . فقال الكلابي : إن نسائي بأمتهن . ولم تدع الشعراء في نسائك مترفقاً .

وللكثرة ما أثم الشعراء ، وما خاضوا فيه من إفك وإثم ، أحس بعضهم بشاعة ما أجرم ، وشناعة ما قذف من عرض ، وهتك من ستر ، وخرق من حرمة ، حتى إن الفرزدق نسك في آخر عمره وتعلق باستار الكعبة ، وعاهد الله أن لا يكذب في شعره ، ولا يشتم مسلماً .

ومن الهجاء المرقول الأخطل في قوم جرير :

قوم إذا استنبح الأضياف كلهم مو قالوا لا مهمو : بولى على النار /

فتمنع البول شحا أن تجود به ولا تجود به إلا بمقدار
والذين كالعنبر الطندي عندهم وقوله في تيم :

وكنيت إذا أقيت عبيد تيم وتيا قلت : أئيم العبيد ؟
لئيم المسلمين يسود تيا وسيدهم وإن كرهوا مسود
ومن هجاء الفرزدق لجريز :

ولو ترمي بازم بنى كليب ولو لبس النهار بنو كليب
لدفن أئيمهم وضح النهار ليطلب حاجة إلا بجمار
وقوله كذلك في هجاء جريز :

فإن تلك كلبا من كليب طافى من الدارمين الطوال الشفاشق
هم الداخلون البيت لا تدخلونه على لك ، والخالون عند الحقائق
ونحن إذا حدثت عند قديمها مكان التواصي من وجوه السوابق
ومن مشهور قصائد الجاهلية قول جريز بن عمرو الراعي العمري في قصيدته
التي مطلعها :

أقبل اللوم عاذل والعسايا وقول إن أصبت لقد أصابا
أجسدك لا تذكر عهد نجدة وحيا طالما أنظروا الأيايا
وهيها :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا
فلا وأبيك ما لا قيت حيا كيربوع إذا رفقوا النقايا
فغض الطرف إنك من نمير فلا كتبها بلغت ولا كلابا
وهيها :

فلا صلى الله على نمير ولا مستقيت فلو بهم سخايا
أنا الهازي الماطل على نمير أتيح طسا فمن الجوا الصبايا

ومن نماذج الهجاء قول قنبر بن خزيمة :

إن يسمعوا ربيعة طاروا بها فرحا من وما سمعوا من صالح دفنوا
صم إذا سمعوا خيرا ذكرت به وإن ذكرت بشر عنهم أذنوا
جهلا علينا وجهنا عن عدوهم لأنت أظلمنا : الجبل والجبن
وقال عبد الرحمن بن الحارث :

لما الله قيسا قيس حيلان إنيها أفاضت ثمر المملوك وولات
فشاول بقيس في الظمان ولا تكن أخاهما إذا ما المشرقية سالت
وقال مالك بن أسماء في الهجاء :

لو كنت أحمل نهر يوم زرقكم لم ينكر الكلب أنى صاحب الدار
لكن أنيت وريح المسك ينال ويحترق الفند أذكيه على النار
فأنكر الكلب ريحى بن أبيسرى وكان يعرف ريح الزق والقار
وقال آخر :

أقول حين أرى كعبا وحيته لا بارك الله في بضع وستين
من السنين قولاما بلا حساب ولا أحياء ولا قدر ولا دين
وقال النابغة الجعفى فى تهيم :

تميم بطرق اللوم أغدى من القطا ولو سلكت سبل المسكارم ضلت
ولو أن برغوثا على ظهر نملة ينكر على صفي تهيم لوات

الغزل :

الميل إلى المرأة ، والتعلق بها ، واضطرار الأعصاب نحوها ، غريزة فطرية
تلازم الإنسان فى جميع أطوار حياته ، وتقتضيها طبيعة إنسانه بحاجته إليها ؛
ومن هنا هام الشعراء بحب المرأة ، وكافوا بالحديث عنها ، وجعلوها أعذب
أناسيدهم ، وأروع أحاسينهم ، بل جعلوا الحديث عنها وسيلة إلى إثارة النفوس ،

وفتح مغاليق القلوب ، وإرهاقا الأذان ، وبعثا الأريحية ، فاستهلوا به قصائدهم ،
وافتحوا أشعارهم ، وجعلوا ذلك مقدمة لما يريدون من غرض ، وينشدون
من مأرب .

على هذا جرى الشعراء منذ الجاهلية ، وعلى هذا كان الشعراء في عصر صدر
الاسلام ؛ حتى لقد رأينا كعب بن زهير يفتتح قصيدته الى أشدنا أمام الرسول
صلوات الله عليه ، في مدحه ، بالحديث عن المرأة ، ووصف محاسنها فيقول :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متم إثرها لم يفد مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغن غضيض الطرف مكحول
هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة لا يشتكى قصر منها ولا طول

واثن كان الاسلام قد حد من إغشاش الشعراء في الحديث عن المرأة ، ودعاهم
إلى التقصد في القول ، والصدق في الوصف ، والبعد عن الخمرات ، فلم يلبث
الشعراء بعد أن غفت عنهم الاعين الرقيبة ، ونامت اليقظة الساهرة ، أن
عادوا إلى سيرتهم الأولى ، فاستجابوا لنوازع النفوس ، وأهوائها ، وخضعوا
لاضطرام الشهوات وعنفها ، وراحوا يقولون الشعر الذي توحى به المرأة ،
لا يبالون ولا يتخرجون .

وهكذا شاع الغزل في العصر الاموي ، وتعددت ألوانه ، واتسعت
مظاهره ؛ بل إنه أخذ مظهرا جديدا لم يكن له من قبل ؛ فقد وجد شعر الغزل
مستقلا لا يشركه غرض آخر ، وظهرت وحدة الغرض في القصيدة الغزلية ؛ كما
وجد شعراء وقفوا حياتهم وفنهم على الغزل ، لا يقولون في غيره ، ولا يطرقون
بابا آخر سواه ؛ فكل خاطرة من خواطرهم ، وكل نزعة من نزعاتهم ، لا تتصل
إلا بالمرأة ، وكل لفظة من الفاظهم لا تصف إلا جمالها الفائق ، وحديثها العذب ،
وحبها المبرح ، ووصالها الحلو ، وصدده المضي .

وبهذا تجلت جادة الغزل في شعر الأمويين ، واضحة وضوحا يكاد يجعله
غرضا جديدا .

ومن الممكن أن نرجع ألوان الغزل الأموي ومذاهبه إلى أنواع ثلاث :

- ١ -

الغزل التقليدي :

وهو هذا النوع من الغزل الذي يفتح به الشاعر قصيدته في وصف المرأة ،
أو الحزين إليها ، أو ما يكون له معها من وصل وصد ، ورجاء ويأس ، وإطعام
وامتناع : وإن لم يرح به هوى ، أو يستبد به حب ، أو تضنيه صباية . ثم لا يلبث
أن يتركها إلى ما يقصده من أغراض أخرى يهدف إليها في قصيده .

وهذا النوع ليس جديدا في هذا العصر ، وإنما كان تقليدا ومحاكاة للشعراء
القدماء من الجاهليين ، كما ظل كذلك في جميع العصور . ومعظمه صناعي ، لا أثر
فيه لمحاكاة أو شعور صادق .

وشعراء هذا اللون كثيرون في هذا العصر ، منهم جرير والفرزدق والأخطل
وعبيد الله ابن قيس الرقيات ، وذو الرمة ، وغيرهم .

هذا ابن قيس الرقيات يمدح عبد العزيز بن مروان ، فيقول في مطلع مدحته :
لم يصح هذا الفؤاد من طربه وميله في الهوى وفي لعيه
وهذا ذو الرمة يمدح بلال بن أبي بردة الأشعري ، فيقول في المطلع :

أراح فريق جبرتك الجمالا كأنهم سو يريدون احتمالا

وهذا جرير يحيد الغزل مع دينه وخفته ، ومع أنه يحدث عن نفسه ، فيقول :
ما عشقت قط ، ولو عشقت لنسبت نسيبا تسمعه العجوز فتبكي على ما فات من
شبابها . ومن رقيق غزله قوله :

بنفسى من تجنبه عزيز علي ومن زيارته لمام

ومن أسمى وأصعب لأراءه ، ولما قرأوا هذه النسخة
وقوله :

بأن الملائكة ولو طروفت ما باننا
حي المنازل إذا لا تهنى يدنا
إن الذين أتى في دارنا حور
يصر عن ذا الباب حتى لا يراهم
يا حبينا جيل الريان من جيل
وحبنا ففحات من يمانية
ولما رأوا من جمال الوصل أقرانا
بالقار دارا ولا طرازا
فلما ثم لم يبرين قسلانا
ومر أخصاب غار الله إنسانا
وعلمنا سائر الناس من قانا
تأتيك من قبل الريان أعيانا

- ٢ -

الفصل العاشر :

الناطق فريق من شعراء هذا العصر في مراكب البحر والجهنم ، مستعجبين لما
يتردد في نفوسهم من شعرات طارئة ، ونوريات رائعة : فرأوا يتنبهون الحسن
في كل مكان ، ويترصصون الجمال في كل موطن ، ويحاورون النساء في كل بلاد ،
لا يحجزهم قيد من دين ، ولا فرق من سلطان ، وانحدروا يصرون ما قارفوا ،
ويصفون ما شاهدوا ، أو يتخيلون ما يشتهون ، ويضع آثرهم إليها عزائمهم :
ويصورون ذلك في قصائد رائعة تفيض بالبهجة والبهجة ، وتزخر بالذات
العارمة ، وتشير الفتنة النائمة ، وتوقظ الشهوة الخافية .

وقد شاع هذا اللون الماخذ من الشعر في الحجاز ، وأهل السبب في ذلك أن
خلفاء بني أمية قد استعجزوا هناك شباب الهاشميين ، وأخذوا عليهم الأموال
الطائلة ، وأغرقوهم بالتحيرات الكثيرة ، وساططوا عليهم الفخ والغنى ، ليصرفهم
عن شؤون الخلافة وسياسة الدولة ، فلما شربوا بالفهم ، وأنعموا بالترف ،
وضاقوا بالفراغ ، انصرفوا إلى مجالس الغناء ، وتبجح النساء ، وهمازلة الحسان ،
والتعرض لمن في كل مكان .

وهكذا شاع هذا اللون وذاع ، حتى شغل الناس به ، وفان الذسام بروعه
وسحره ، وحتى كانت كل امرأة مصحبة محصنة ، تسمى أن يقال فيها شعر ، تنبأ
به على أترابها ، وتفخر على لسانها .

والشاعر الأباخي من هذا النوع ، لا يتعلق قلبه بامرأة واحدة ، ولا يقف
حياته على دعبودة بعينها ، وإنما يقطف من كل بستان زهرة يانعة متألجة ، فهو
البحيم بامرأة يمجبه حسنها ويستهو به جمالها ، حتى إذا رأى أخرى أنجبه منها معنى
آخر ، طار إليها ، وتعلق بها ، وهكذا لا تشبع نفسه ، ولا يفتح صدره .

وقد شاع في هذا النوع الأباخي من الغزل الفن القصصى ، وهو وإن اتكأ
على دعامة جاهلية من شعر امرئ القيس ، فقد استكمل عناصر القصصة ، وحمل
أطرافها ، واستوفى شخوصها ، ورسم لها الألوان والظلال ، التي تستثير المشاعر ،
وتهيج العواطف . وزعم هذه الطائفة عمر بن أبي ربيعة .

قال عمر في رائيته المشهورة :

أمن آل نعم أنت غاد فبكر	غداة غدا أم راح فمهر
نهم إلى نعم فلا الشمل جادع	ولا الحبل موصول ولا القلب مقهر
ولا قرب نعم إن دنت لك نافع	ولا نأبها يسلى ولا أنت تصبر
إذا زرت نهما لم يزل ذو قرابة	لها كلما لاقيتها يتنمر
عزيز عليه أن ألم بديتها	يسر لي الشجناء والبغض مظهر
بآية ما قالت غداة لقيتها	مدفع أكتان : أهذا المشمر (١)
قفي فانظري أسماء هل تعرفينه	أهذه المغيرة (٢) الذي كان يذكر
فقلت نعم لا شك غير لونه	سرى الليل يحى أضه والخمر (٣)

(١) المشمر : الذي شعر أمره ، مدفع أكتان : موضع .

(٢) نسبة إلى جده المغيرة .

(٣) التمر : السير في الهاجرة .

لئن كان إياه لقد حال بعدنا
رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت
أخا سفر جواب أرض تقاذفت
قليل على ظهر المطية ظمأ له
وأعجبها من حيثها ظل غرفة
ووال كيفها كل شيء يهوما
ثم يقول :

فلما فقت الصوت منهم وأطفئت
وغاب قبر كنت أرجو غيرة
ونفضت عن النرم أقباب شية اله
لحييت إذ لا قيمتها فتوهمت
وقالت وعضت بالبنان فضحتني
أريتك إذ هنا عليك ألم تخف
فوالله ما أدري أتعجيل حاجة
فقلت لها : بل قاذي الشوق والحرى
فلما تقضى الليل إلا أقله
أشارت بأن الحى قد حان منهم
فها راعنى إلا مناد برحلة
فلما رأت من قد تثور منهم
فقلت أباديهم فاما أفوتهم

مصاييح شبت بالمشاء وأنور^(١)
وروح رعيان ونوم سمر^(٢)
حجاب وركني خيفة القوم أزور^(٣)
وكادت بمكنون التحية تجهر
وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر
رقيا وحولي من عدوك حفر
سرت بك أم تدنام من كنت تحذر
إليك وما عين من الناس تنظر
وكادت توالى نجمه تنفور
هريب والكن موعد لك عزور^(٤)
وقد لاح مفتوق من الصبح أشقر
وأيقاظهم قالت أثر كيف تأمر
ولما ينال السيف نارا فيثار^(٥)

(١) أنور : جمع نار ، ويقال أنور أيضا

(٢) رعيان : جمع راع — سمر : جمع سامر — روح رعيان : أى روحوا إليهم عشاء

(٣) الحجاب يضم الحباء : الثمبان ، أزور : مائل

(٤) عزور : موضع بمكة

(٥) أباديهم : أظهر عليهم

عليها وتصديقاً لما كان يؤثر (١)
من الأمر أدنى للخفاء وأستر
ومالي من أن تعلمنا متأخر
وأن ترجبنا سرّاً بما كنت أحصر (٢)
من الحزن تفردى عبدة تتحدر
أتى زائراً والأمر للأمر يقدر
أقل عليك أظم فالحطاب أيسر
فلا سرنا يفشو ولا هو يظمر
ثلاث شخوص كاعيان ومعهصر (٣)
ألم تنق الأعداء والليل مقرر
أما تسمعي أو ترعوي أو تفكري (٤)

فقلت : اتحقيقاً لما قال كاشع
فان كان ما لا بد منه فظهره
أقص على أختي بدء حديثنا
لعلها أن تبغيا لك مخرجا
فقامت كميهاً أيس في وجهها دم
فقلت لأختها أعيها على فتى
فأقبلنا فارتاعنا ثم قالتا
يقوم فيهمشي بيننا متمسكرا
فكان مجنى دون من كنت أتى
فلما أجزنا ساحة الحى قلن لي
وقلن : أهذا دأبك الدهر سادرا

ويقول عمر أيضاً :

أحب القتل أخت الرباب
بإ إذا ما منعت طعم الشراب
منعت ذراعاً بهجرها والكتاب
مهمجتي ، ما لقاتلي من قتاب
من دعائي ؟ قالت : أبو الخطاب
في رجال يرجون حسن الثواب
بين خمس كواعب أتراب
في أديم الخدين ماء الشباب

قال لي صاحبي ليهم ما بي
قلت : وجدى بها كوجدك بالعد
من رسول إلى الثريا بأني
أزهقت أم نوفل إذ دعيتها
حين قالت لها : أجبني ، فقلت
فأجابني عند الدعاء كما لم
أبرزوها مثل المهاة تمادى
وهي مكنونة تحير منها

(١) يؤثر : يهكي

(٢) المعصر ، بالفتح : الصدر ، وبالكسر : النفس . أحصر من حصر (كفرج) : ضاق ذرعاً

(٣) الخشب : العرس ، المعصر : المرأة واهنت العشرين .

(٤) الصادر : الذي لا يبالي ما يصنع

دمية عند راعب ذي الجهاد مسرورا في جانب الهراب
ثم قالوا : تحبها ؟ قلت همرا
وقال يزيد بن الطارية :

بنفسى من لو مر برد بسانه على كدى كانت شفاه أنامله
ومن هابنى فى كل شىء وعيت فلا هو يطلبنى ولا أنا حائله

— ٢٧ —

الغزل العذرى : أما هذا النوع من الغزل فهو الذى يصدر عن عاطفة صادقة ، وحب عميق ، وصباية متأججة ، ودوى مشتعل ، ملك على المرء قلبه ، وسلب له ، وطفى على جميع مشاعره ، وصرفه عن الحياة وشهواتها ، وسلب كل ما فيه من عاطفة وإحساس إلى المعبودة التى لا يرى فى الحياة أجمل منها ، وإن لم تكن من أجمل النساء ، فلها يعيش ، وعليها يقف حياته ورفقه ، وحبه وشعره . . وعماد هذا اللون الصدق فى العاطفة ، والعفة فى القول ، والتفانى فى المحبوب ، والضراعة فى الحب : فلا يتناول الشاعر الرواق مفاتن الجسم ، ولا محاسن الأعضاء ، ولا ما يثير الشهوة ، أو يناقض العفة . وإنما يعتمد على المعانى الروحانية والنوازع القلبية ، ويشكو ما يكابد من آلام الهمد ، وقسوة الحرمان والصد ، ونجهم الأيام ، ومعاكسة الزمان ، وقد تقنعه النظرة العاجلة ، أو الوعد المكذوب كما يقول جميل :

وانى لأرضى من بثينة بالذى لوابصره الواشى لقرت بلابله
بلا وبالا أستطيع وبالمنى وبالأمل المرجو قد خاب آمسه
وبالنظرة العجلى وبالحول تفضى أو أخيره لا تلتقى وأوائله

فهو لون حزين بالك ، يستثير الشفقة ، ويبحث الرحمة ، ويدعو إلى الرثاء ، يزهد صاحبه فى الحياة ، حتى يسترخض كل غال فى سبيل من يحب ، ويستعذب

كل ألم من أوجله ، ويتمنى لنفسه أسوأ الأمانى ، وأنكد الحالات ، وشر ألوان
الضروب ، ما دام ذلك من أهل المحبوبة :

ألا ليتنى أعمى أصم قودنى بثينة لا يخفى على كلامها

لو جز بالسيف رأسى فى مودتها لم يهوى سريسا نحوها راسى

وهذا اللون الذى يقف فيه الشاعر حياته وحبه وشعره على محبوبة واحدة ،
هو الذى يعرف بالحب البذرى ، نسبة إلى بنى عذرة ، وهى قبيلة بدوية من
قضاة ، اشتهر شبابها بالحب البرى الصادق ، والهووى العفيف المفضى ، والموت
فى سبيل المحبوب . حتى قيل لرجل منهم : ما بال العشق يقتلكم يا بنى عذرة ،
فقال : لأن فينا جمالا وعفة .

ولم نر - فيما أثر لدينا - أن هذا النوع كان له وجود قبل هذا العصر ؛
فهو بهذا يعد بعيدا كلى الجدة .

ومن أظرف شعرائه : جميل بثينة ، وقيس بن الملوح صاحب ليلي العامرية ،
وقيس بن ذريح صاحب لبنى ، وكثير عزة غلى المشهور ،
ومن أمثله قول جميل :

وما زلتو يا بنى حتى لو آتى	من الشوق أستبكي الحمام بكى ليا
إذا خدرت رجلى وفيل شفاؤها	دعاه سبيب كنت أنت دعائيا
وما زادنى النار المفرق بعدكم	سلوا ولا طول الالاقى تقاليا
ولا زادنى الواشرون إلا حباة	ولا كثرة النساءين إلا تماديا
ألم تعلمى يا عذبة الرق أنى	أظل إذا لم أسق ريقك صاديا
لقد خفت أن يغتالى الموت بنة	وفى النفس حاجات إليك كاديا
ولمى لمسبى لقاءك كلما	لغيتك يوما أن أثبك ما بيا

وقال كثير عزة :

وما كنت أدري قبل عزة ما البكا ولا هوجمات القلب حتى تولت

فقلت لها يا عز كل مصيبة
 ولم يلق إنسان من الحب مية
 أريد الثراء عندها وأظنها
 فما أفصفت أما النساء فبفضت
 يكافها الخيران شتمى وماها
 هنيئاً مريئاً غير دام مخامر
 فوالله ما قاربت إلا تباعدت
 فان تسكن العتي فأهلاً ومرحباً
 وإن تكن الأخرى فان ورامنا
 أسى بنى أو أحسنى لاهلومة
 فما أنا بالداعى لعزة بالجوى
 فلا يحسب الواشون أن صبابى
 فوالله ثم الله ما حل قبلها
 فيما عجباً للقلب كيف اعترافه
 ولانى وتهامى بعزة بعدما
 لكالمترجى ظل الغمامة كلها
 وكانت لقطع الحبل بينى وبينها
 وكان الصمة بن عبد الله القشيري (١) يهرى ابنة عمه ، فتماسك أبوه وعمه

فى المهر ، ولج كلاهما متمسكا برأيه ، فتركهما الصمة وانصرف إلى الشام ، وكتب
 نفسه فى الجند ، واستبد به الحنين ، فقال :

خننت إلى ربا ونفستك باعدت مزارك من ربا وشعبا كما معا
 فما حسن أن تأتى الأمر طائعا وتجزع ان داعى الصباة أسما

(١) كان رجلا شريفا ناسكا عابدا شاعرا غزلا دقيقا مقلا بدويا من شعراء الدولة الاموية .

قفا ودعا نجدا ومن حل بالحي
بنفسى تلك الارض ما أطيب الربا
ولما رأيت البشر قد حال دونها
بكنت عيني اليسرى فلما زجرتها
تلفت نحور الحى حتى وجدتني
وأذكر أيام الحى ثم أنش
ولست عشبات الحى برواجع

ويقول مجنون ايلي :

ألا أبها البيت الذى لا أزوره
هجرتك إنفاقا وزرتك خائفا
سأستعقب الأيام فيك لعلها
ويقول وقد أخذه أبوه إلى الكعبة ، وقال له : تعلق بها وقبل اللهم ارحنى من
ليلى وحيا ، فلما تعلق بها قال :

يقر بعيني قريبي ما ويزيدنى
وكم قائل قد قال تب فعصيته
فيانفس صبرا لست والله فاعلى
بها شغفاً من كان عندي يهيمها
وتلك لعمري توبة لا أتوبها
بأول نفس غاب عنها حبيبها

(١) البشر جبل فى أطراف نجد من جهة الشام . وجالت : تهركت . وبنات الشوق مسيراتهن وآثاره .
ونزع بضم النون وتشديد الزاى المفتوحة جمع نازع أى مشتاق ذو ميل وحزين .

(٢) كان الصمة أعور العين اليمنى ، ربما يدل على ذلك قوله :

عذرتك يا عيني الصحيحة بالبكا فها أرلح العوراء بالهملائ .

(٣) الليث بكسر اللام صفحة العنق . والأخذ عان عرقان فى جانبي العنق ، والاصفاء : الميلي .

(٤) التصدع التشقق والانفطار .

ويقول قيس بن ذريح في لبي : .

قأن يحجبوها أو يحل دون وصلها
فلن يحجبوا عيني من دائم البكا
إلى الله أشكو ما ألقى من الهوى
وقال قيس لبي :

فإن لك لبي قد أتى دون قربها
فإن نسيم الجوى يجمع بيننا
وأرواحنا بالليل في الحى تلقى
وتجملنا الأرض الفرار وفوقنا

أغراض أخرى :

وهناك أغراض أخرى متعددة ، قال فيها الشمرام فأكثروا ، وصوروا فأجادوا
لم يتخافوا عن أقرانهم ، ولم يضيقوا في ميدانهم ، وإنما نهضوا سباقين ، وجالوا
في كل ناحية مبرزين .

٩

الوصف :

ومن نماذجه الكثيرة قول أبي النجم يصف فهود عبيد الملك بن مروان :

فهن ضوار من مضر يات
تربك آماقا مخططات
سودا على الأشداق شائلات
تلوى بأذنان موقوفات

وقال الفرزدق يصف ذئبا :

وأطلس عسال وما كان صاحبها دعوت لئارى موهنا فأثنانى (١)

(١) أطلس : أكبر الآون . . . عسال : مضطرب في مشيته . موهن : منحور من نصف الليل .

وإياك في زادي لمهتركان
على ضوء نار مرة ودخان (١)
وقائم سبني من يدي بمكان
نكن مثل من - ياذئب - يصطحبان
أنمين كانا أرضنا بلبان
رماك بسهم أو شبة سنان (٢)
تماطى القنا قوماهما ، أخوان

فلما أتى قلت : ادن ، دونك ، إني
فبت أقد الزاد بيني وبينه
وقلت له لما تكشر ضاحكا
تعش ، فان عاهدني لا تخونني
وأنت امرؤ - ياذئب - والفدر كمتها
ولو غيرنا فبنت تلتصق القرى
وكل رفيعي كل رجل ، وإن هما
ويقول الأخطل في وصف الخمر :

لبريشم - برقاعه ملثوم
نفحت فشم رياستها المزكوم

وتظن تتحفنا بها قروية
فاذا تعاورت إلا كيف زجاجها
ويقول الوليد بن يزيد :

فهي عجزوز تعلو على الحقب
من الفتاة السكريمة الذهب
حتى تبنت في منظر عجب
وهي لدى المزج سائل الذهب
تذكو ضياء في عين مرتقب

من قهوة زامها تقادحها
أشهى إلى الشرب يرم جلوتها
فقد يحات ورق جرهرها
فهي بغدير المزاج من شرر
كأها في زجاجها قبس

ويقول الأخطل كذلك في وصف الكأس :

نفسى الشاربين لها العقولا
بغير الماء حاول أن يطولا
وأدخى من مآزره الفضولا

وكأس مثل عين الديك صرف
إذا شرب الفئ منها ثلاثا
مشى قرشية لا شك فيهما

وقال يصف السكران :

ليحيا وقد ماتت عظام ومفصل

صريع مدام يرفع الشرب رأسه

نهاديه أحيانا وسحبنا نجره وما كان إلا بالحشاشة يعقل
إذا رقبوا صدرا تحامل صدره وآخر ممسا نال منها حمل
وقال بعض الحجازيين يصف حال امرأته عندما علمت بزواجه من غيرها
وهو عمر بن أبي ربيعة :

خبروها بأننى قد تزوجت فظلت تكاتم الفيظ سرا
ثم قالت لأخنمسا ولأخري جوعا : ليتك تزوج عشر
وأشارت إلى أسماء لديها لازى دونهن السر مسترا
ما ألقى كأنه ليس مني وعظاى كأنه فيهن فزا
من حديث نما إلى فظيع غلت في القلب من تظليه جرا

وقال حطان بن المعلى يصف حاله وحال بناته :

أنزلني الدهر على هوسك من شاخ عال إلى خفيض
وغالى الدهر بوفر الغنى فليس لي مال سوى عرضي
أبكاني الدهر وبما أضحكني الدهر بما برضى
لولا بذيات كيزغب القطا رددن من بعض إلى بعض (١)
لـكان لي مضطرب واسع في الأرض ذات الطول والعرض (٢)
وإنما أولادنا يمتسا أكبادنا تمشي على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم لا متفعت عيني من الغمض (٣)

* * *

(١) الزغب : الشعر اللين الصغير ، وكفى بهذا عن الضعفاء والصغار . رددن الخ . أى تتابعن وكثرن كل واحدة جنب الأخرى .

(٢) المضطرب : الاضطراب والحركة . المعنى : لو لا خوفى من ضياعهم لكان لي مجال واسع في الأرض وإنما لمت مكاني بسبيهم .

(٣) المعنى : أنه لا يظمن إلا إذا كانوا سالمين بأجمعهم .

شعر الحماسة :

قال قطري بن الفجاءة الخارجي :

أقول لها وقد طارت شمعاً
فانك لو طلبت بقاء يوم
فصبراً في مجال الموت صبراً
وما ثوب البقاء بثوب عسر
سبيل الموت غاية كل حي
ومن لا يفتبط يسأم ويهرم
وما لدمه شفيق في حبيسة
من الأبطال ويحك لن تراعى^(١)
على الأجل الذي لك لن تطاعى
فما نيل الخلود بمستطاع
فيطري عن أخى الخنع اليراع^(٢)
وداعيه لأهل الأرض داع
وتسله المنون إلى انقطاع^(٣)
إذا ما عد من سقط المتاع

• • •

وقال سعد بن ناشب :

سأغسل عني العسار بالسيف جالياً
وأذهل عن داري وأجعل هدمها
ويسفر في عيني تلادي إذا اشتت
فان تدمروا بالغدر داري فانها
على قضاء الله ما كان جالياً
لعرضى عن باقي المذمة حاجبها
يميني بادراكى الذي كنت طالباً
تراث كريم لا يبالي العواقبا

المسبح :

قال جرير يمدح عبد الملك بن مروان :

(١) شمعاً أى منفرة .
(٢) الخنع : الذل والضميم ، واليراع الجبان المستطار القلب .
(٣) يفتبط يمت شاكها .

- أصبحوا ، أم فؤادك غير صاح
تقول العاذلات : علاك شيب !
تموت أم حزره ثم قالت :
تعمل وهي ساغبة بنيتها
سأمتاح البحور فينبني
أنتى بالله ليس له شريك
أعثنى - يا فؤادك أنى وأنى -
فانى قد رأيت على حقا
سأشكر إن رددت على ريشي
أستم خير من ركب المطايا
وقوم قد سموت لهم فسدافوا
أبحت حتى تهامة بعد نجد
- عشية هم صبيك بالروح (١)
أعدا الشيب ينحنى مراستى ؟ (٢)
رأيت الواردين ذوي امتاح (٣)
بأنفاسي من الشيم التراح (٤)
أذاة اللوم وانتظري امتياحي (٥)
ومن عند الخليفة بالنجاح
بسيب منك : إنك ذو ارتياح (٦)
ذيارتي الخليفة وامتنع
وأنت القوادم في جناحي (٧)
وأندى العالمين بطون راح (٨)
بدهم في مليلة رداح (٩)
وما شيء هيت بمستباح (١٠)

- (١) أصبحوا : ترك الباطل . الروح : الذهاب ، عشية . ويصح أن تكون أم بمعنى بل أى للاضراب .
(٢) المراح : الاختيال والتبختر .
(٣) أم حزره : زوج جدير . امتاح : عطاء .
(٤) عمل : تشغل وتلهى ساغبة جائعة الشيم البارد من الماء التراح الصافي .
(٥) متع الماء استقاه واستخرجه من البئر والمراد العطاء الذى يناله من عبد الملك بن مروان المشبه بالبحر عطاء .
(٦) السيب العطاء ذو ارتياح أى الى السكرم .
(٧) القوادم جمع قادمة الريش فى مقدم الجناح وهى كبار الريش وضدها الخوافى والمراد إن أعزتنى .
(٨) المطايا جمع مطية الراح جمع راحة بطن السكف .
(٩) سموت لهم خرجت إليهم محاربا . دانرا خضعوا . دهم خيل مورد ، الواحد أدهم المليلة الكثيرة المجتمعة رداح كثيرة نفيلة .
(١٠) أبحت جللت . الحى ما يحميه الانسان وينعمه - إشارة الى حروبه فى بلاد العرب

الثناء :

ونماذجه كثيرة في الشعر الاموي :

قال جرير يرثى زوجته :

ولزرت قبرك والحبيب يزار	لولا الحياة لمأجنى استعمار
ومع الجمال مسكينة ووقار	وانقد أراك كسيت أجل منظر
والمرض لا دنس ولا خوار	والريح طيبة إذا استقبلتها
وجها أشر يزينه الأسفار	وإذا سريت رأيت نارك نورت
والصالحون عليك والأبرار	صلى الملائكة الذين تخيروا

o o o

وقال كعب الغنوي يرثى أخاه :

كأنك يحميمك الشراب طيب	تقول سايمن ما لجسمك شاحبا
على صكبار والزمان يريب	فقلت نحول من خطوب اتابمت
أخي فلما يا للرجال شعوب	لعمري لئن كانت أصابت هنية
عليه وبعض القائلين كذوب	فاني لباكيه وإني اهصادق
على نائبات الدهر حين تنوب	أخ كان يكتفيني وكان يعينني
وايث إذا لاقى الرجال قطوب	هو العمل المأذى أيضا وشيمة
إذا ابتدر الحيل الرجال يخيب	كسالية الرمح الرديني لم يكن
فلم يستجبه عند ذاك مجيب	وداع دعا يا من يجيب إلى الندى
لعل أبا المغوار منك قريب	فقلت ادع أخرى وارفع الصوت ثانيا
بأمثاله رجب الذراع أريب	يجبك كما قد كان يفعل إنه
بما لم تكن عنه النفوس تطيب	فلو كانت الموتى تباع اشتريته

بمعنى أو يبنى يدي وخلفتني أنا الفخام الجذلان حين أموب
فوالله لا أنساه ماذر شارق وما اهتز من فرع الأراك قضيب

— ٥ —

الاعتذار :

ومن نماذجه قول الكميت يعتذر إلى هشام بن عبد الملك :

كم قال قائلكم : لما لك عند عشرته لئاشر^(١)
وغفروتم لذوى الذنوب من الأكابر والأصاغر
أبنى أمية إنكم أهل الوسائل والأوامر
ثقتى لكل ملية وعشيرتى دور المشائر
أنتم معسدين للنفوس لا فة كابرا من بعد كابر
بالتمسدة المتابعين خلائفا وبخسائر عاشر
وإلى القيامة لا ترا ل شافع منكم وواتر

(١) لئالك : كلمة دعاء يقال للأشتر بمعنى أقوال الله عز وجل

مميزات الشعر الاموى

الألفاظ والأساليب :

تأثر الشعر العربى فى هذا العصر بعوامل متعددة ، كان لكل عامل منها أثره الخاص فى ألفاظه وأساليبه :

١ - فقد التفت العربى إلى القرآن الكريم ، وجعل يستظهر آياته ، ويتملى من بلاغته ، ويعجب بأساليبه الباردة ، وألفاظه العذبة ، وديباجته المشرقة . واستمع إلى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما يلىتمع فيها من جوامع الكلم ، وسلاسة الأسلوب ، وإشراق البيان ، فكان لهذا أثره فى تهذيب اللفظ الشعر وأسلوبه ، وترقيق نواشيه وصفاء ديباجته .

٢ - وإلى ذلك عنى القوم برواية الشعر الجاهلى واستظهاره ، وإحياء آداب القدماء ، بما تنطوى عليه من جزالة الألفاظ ، وضخامة الأساليب ، فكان لا بد أن تتأثر لذلك أدواقهم ، وتنطبع عليه ألسنتهم ، ويظهر ذلك فى منطقهم .

٣ - ثم كان هناك شعراء غمرتهم الحضارة ، واستولى عليهم الترف ، وعاشوا فى ظلال النعيم الذى أتبع لهذه الدولة . وللحضارة أثرها فى رقة اللفظ ، وعذوبة المنطق ، وسهولة الأسلوب .

كما كان هناك شعراء آخرون عاشوا فى البادية ، أو عاشوا بروح البادية ، وانطبعت فى نفوسهم صورها الحشنة ، وأطياها الجافية ، فكانوا بدويين فى تفكيرهم ومنطقهم وأسلوب شعرهم .

ومن هنا وجدت في الشعر نزعات عذافة ، وبذات متباينة ، وألوان متعددة ، كانت نتيجة لاختلاف هذه العوامل الثلاث .

فمنالك من الشعر ما يروعنا بحلاوة جرسه ، ورقة لفظه ، وعذوبة أسلوبه ، وسماحة مزجه ، وتدفق الأنغام الشعرية التي تنساب من بين ثناياه . وهو الشعر الذي تأثر بأدب الإسلام ، أو عاش في الحواضر المترفة . ومن أصحاب هذا النوع شعراء الفزاة الحجازيون كعمر وجيل والأحوص ، وبعض شعراء الأندلس كجبر ، الذي كان الفرزدق يقول فيه : ما أحوجني مع فسوق إلى رقة شعره ، وأحوجه مع عفافه إلى خشونة شعري (١) .

وكذلك تجد في الشعر الأموي ما يطالعنا بجزالة لفظه ، وقوة أسلوبه ، ومثانة تركيبه ، وشرابة مزجه ، ووعورة مسلكه ، وبداعة سمته ، وذلك هو الشعر الذي تغذى أصحابه بآثار الجاهليين ، وارتضعوا أفوايق القدماء ، وعاشوا بروح البداية ، وانطبعوا بطابعها ، كالفرزدق وذو الرمة والقطامي والاختل .

• • •

ومن السمات البدوية التي شاعت في هذا العصر ظهور الأراجيز وكثرتها فقد عنوا بها عناية جماعاتها تقرب من القصائد في أكثر خصائصها ، فبعد أن كان البدوي ينظم منها بضع مشطورات يحدوها الإبل أو يصفها أو يصف ظيها أو ظالما أو ثورا وحشيا ، أخذ الفحول من الرجازين يطولون الأراجيز ، وينحون بها منحنى القصائد ، ويضمنونها أغراضها من المدح والهجاء والفخر والرثاء ، وصاروا يمدون لهذه الأغراض بالنسيب ، وذكر الديار وآثارها ، والطعامن وحمد وجها ، ويقصدون بها الخلفاء والولاة .

ويرى بعض الأدباء كابن قتيبة أن الأغلب العجلى أول من اتخذ الرجز

سناعة فنية ، وأطال فيه ، وجوده . أما أبو عبيدة فيذكر أن العجاج هو أو
 من أطاله وقصده وشبب فيه ووصف الرحالة ، إلى الممدوح كما فعل الشاعر
 القصيدة ، فكان في الرجاز كاسرى القيس في الشعراء .

ومن الرجازين في العصر الأموي غير العجاج والأغلب العجلي : روبة
 عجاج ، وأبو النجم ، ودكين . . . ومن أمثلة الرجز قول أبي النجم :
 إني وكل شاعر من البشر شيطانه أنثى وشيطاني ذكر
 فما رأي شاعر إلا استمر فعل نجوم الليل عين القمر
 عيشي تميم واصغري فيمن صغر وباشري الأذل وأعطى من عشر
 وأمرى الأنثى عليك والذكر

المعاني والأخيلة :

أما معاني الشعر في هذا العصر فهي المعاني التي تداولها الشعر قبله ؛ بيد أنها
 وسعوا فيها ، وزادوا عليها ، بما تميز لهم من مظاهر الحياة ، وألوان الحضارة
 وسعة الثقافة ، والاختلاط بأهم ذات حضارات ومعارف متنوعة . . . بل
 من هذه الأهم من تم نضجه الأدبي ، واستوى فيه العربي ، فقال الشعر بالعروبة
 متأثراً بثقافته وما ورث من أفكار ومعاني وأخيلة .

ومن هنا غلبت على معاني الشعر الدقة والعمق وترتيب الأفكار ، وكثرة
 الحكم والأمثال ، وتنوعت التشبيهات ، وسما الخيال ، وبدت صبغة الجودة واضحة
 في بعض المناحي والأغراض .

طوائف الشعراء الأمويين

انقسم الشعراء الأمويون طوائف ، من حيث أغراضهم الشعرية ، ومن حيث اتجاهاتهم الفنية :

- ١ -

فهم من حيث الأغراض جماعات ثلاث :

١ - أما الأولى فشعراء الغزل ، وقد مر بنا ذكر الكثير منهم ، ولما ذبح من أشعارهم ومذايبهم في الغزل . ومن أشهرهم : جميل بن معمر المتوفى عام ١٠٥ هـ ، وكثير عزة المتوفى عام ١٠٥ هـ ، وأنصيب ، والأحوص .
ويمتاز شعر الغزلين على وجه العموم بالركة والندوبة والسهولة .

٢ - والثانية الشعراء السياسيون ، الذين وقفوا أنفسهم على الدفاع عن الأحزاب السياسية ، والمصبيات القبلية ، وإذاعة المفاخر والمثالب ؛ ومن هؤلاء جرير ، والفرزدق والأخطل ، والسكيت ، وابن قيس الرقيعات ، ممن انتهوا إلى الأحزاب السياسية يؤيدون أصحابها ، وينهرونهم بقوة البيان ، ويشيدون بدعواتهم في قصائدهم ومقطعاتهم ، ويجمعون حولهم القلوب ، ويفرقون في سبيل مذهبهم الوحدة ، حتى صار شعرهم غذاء للمصبيات ، ومادة للمفاخرات والمهاترات ، يروى أن الهاشميين هرضوا الكهيت الشاعر على إثارة العصبية بشعره ؛ قال المسعودي في مروج الذهب إن عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب قال للكهيت : إني قد رأيت أن تقول شيئاً تغضب به بين الناس ، لعل فتنة تحدث ، فيخرج من بين أصابعها بعض ما نحب ، فأشد قصيدة ذكر فيها مناقب

بنى نزار من ربيعة ومضر ، وأطنب في وصفهم وفضائلهم على بنى قحطان ، وعرض
بما كان من شأنهم مع الأحياء وغيرهم ، ومن هذه القصيدة قوله :

لنا قمر السماء وكل نجم تشير إليه أيدي المهتدين
وجدت الله إذ سمي نزارا وأمكنهم بمكة قاطنين
لنا جعل المكارم خالصات وللناس القفا ولنا الجبين

٣ - والثالثة الشعراء الهجاءون ، الذين أكثروا من الهجاء ، وعاشوا
عليه ، وتبادلوا المناقضات ، يحبون بها العصبية ، ويؤثرون العداوة ، ويتبارون في
فنون الهجاء المقذع ، والتباهي بأحساب الجاهلية وما أثرها وأيامها ، ونبس مادفته
الاسلام من مثالب القبائل ومعايبها ، ومن هؤلاء : جرير والفردزق والأخطل
والراعي والبعيث .

- ٢ -

ومن حيث اتجاهات الشعراء الفنية ، في عصر بنى أمية انقسموا جماعات
وطوائف :

فالأولى : شعراء البادية ، الذين لم يتأثروا بالحياة الجديدة كبير تأثر ، ولم يغيروا
من عيشهم تغييرا يذكر : فظلوا يحاكون نمط الجاهليين في نظم القريض أسلوبا
والفاظا ومعاني وخيالات ، ومن هؤلاء : ذو الرمة والرماح بن ميادة ، سمع
الفردزق ذا الرمة ينشد ، فوقف عليه ، فقال : كيف ترى ما تسمع يا أبا فراس ؟
قال : ما أحسن ما تقول ، قال : فما لي لا أذكر مع الفحول ؟ قال : قصر بك عن
غايتهم بكاؤك في الدمن ، ووعف الأبعاد والعطن .

ولذلك كان شعر هذه الطائفة بدويا جزلا نفخ الألفاظ والأساليب .

والثانية : شعراء الأمصار : كمكة والمدينة ودمشق والبصرة والكوفة ، ممن
كانوا عربا خالصا ، وقد تأثر هؤلاء ببيئة عصرهم وبالقرآن الكريم وبالثقافات

التي ذاعت بينهم ، وأتى شعرهم حضريا رائعا ملما في جزالة ، وإف امتاز شعر
الحجاز بالركة والسلاسة أكثر من غيره ، ومن هؤلاء : ابن قيس الرقيات
جرير والاختل والفردزق ، وعمر بن أبي ربيعة .

والثالثة : الشعراء الموالى الذين كانوا من أصول غير عربية : كنهيب وعبد
المعنى وقد كانا من عنصر حبشى ، وكزياد الأعمى والبهيث وأبى نخيلة وموسى
بن هوات وهم من أصول فارسية . ولا شك أن شعر هؤلاء كان صورة لما ورثوا
من دماء وثقافة ومشاعر وأفكار وخواطر ووجدانات ، فبدت فيه الممانى الجديدة
الأخيلة الجميلة ، والتشبيهات الغريبة واضحة ملموسة .